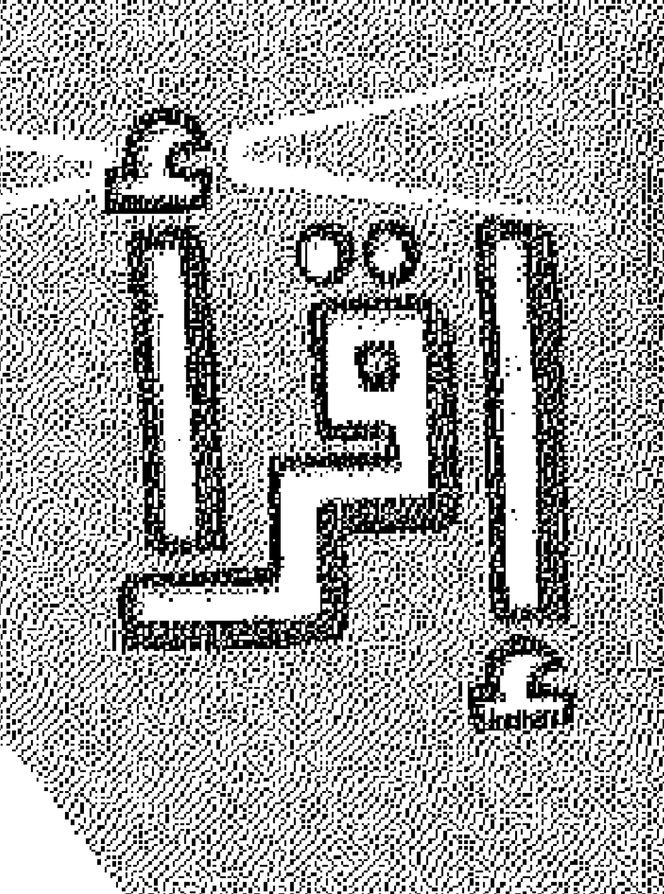


أعترف إليك

وقصص أخرى

أحمد فؤاد تيمور

دار المعارف بمصر



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: عادل الغضبان





أحمد فؤاد تيمور

أعترف إليك

مجموعة قصصية

اقرأ ٣١٥

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣١٥ – مارس سنة ١٩٦٩

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م

الإهـــداء

إلى حب عمرى . .

ملهمتى . .

زوجتى

أعترف إليك

مهداة إلى صديقى : ص .
رمز محبة وإعزاز وتقدير . . .

بعد ساعات ، سألقاكِ فى المطار الذى ودعتك فيه ، واستودعتك الطائر الذى احتملك على جناحيه ، إلى بلاد تناءت عنا ، تنشدين لجسدك الراحة ، ولنفسك البرء .

ركبتِ الهواء ، ذلك الأرعن المأفون، وإنها لمخاطرة ، أملتها علينا ظروف طاغية ، لولاها لتخيرت لسعيك سبيلا أكثر أمناً ، وأسلم جانباً .

لقد طالعنى الطائر يوم رحيلك ، يربض على أرض المطار ، مشرعاً جناحيه ، فى أنفة واعتزاز ، وقد رفت على ثغره ابتسامة هازئة ، توضحت لى مع تباشير الفجر النامية ، وكأنه فطن إلى ما يعتمل فى نفسى من مخاوف ووساوس ، وظنون .

فألفيتنى أشتبك معه فى مناجاة هامسة ، ضارعاً إليه أن يتجنب فى مسراه نزق الريح ، وأن يلتمس من الحيل عوناً على مجالدة الجو والسيطرة عليه حتى تكتب لكما السلامة ، وتأنس بكما البسيطة من جديد، تزجى لكما التحايا، فى إقبال ويمن .

والآن ! بعد انقضاء ذلك الوقت المديد ، وقد ارتقى الطائر
متن الريح ، يقفل بك راجعاً من المصح البعيد ، ما برحت به
أناجيه ، وأسدى له النصح ، كشأنى معه ساعة مرق إلى السماء ،
يحتجب عنا خلف أستار السحب .

لم أكف ، منذ ذلك الحين ، عن مصاحبتك ، والاجتماع
بك ، أسايرك حيث ترحلين ، وأمسى حيث تمسين ، إن أظلت
جبينك غشاوة من تفكير ، أقبلت أفاكهك ، حتى ترف على
ثغرك ابتسامة ، ويتضوأ على محياك إشراق .

لست منك إلا ذلك الراصد الدؤوب ، الذى لا يبتغى
لك فى سهره ويقظته إلا الأنس والإمتاع .

أقسم ! إن قلبى لمستودع كبير ، يعمره لك حب وإعجاب وتقدير .

أما فتئت تعتقدين أنى أخدعك وأضحك منك ؟

دعينى أكاشفك بالداء الذى يعتمل فى نفسك ، يورثك
المخافة والقلق .

زعمت أنى أخونك . . . ! أخونك فى أطراف النهار ،
وغاشية الليل .

منذ سنين ونحن زوجان . . . !

أما حان لك أن تقرى بما أنا منغمس فيه ، من موفور

الجهد ، وموصول السعى ؟

أعهدتِ منى وقت فراغ ، وساعة لهو ؟

أساحر أنا ، قادر على الغداة والعشى ، أصرف الوقت فيهما ، بإمرة منى وسلطان ، إن أشرت إليه ، أو لوحت توقف ، كما أهوى ، لينفسح لى مجال عبث ومجون ؟

لقد امتد غيابك شهرين طويلين ، لم يهدأ « للهاتف » فيهما صليل وعويل ، وما الصوت الذى يتردد منه إلا صوت صاحبتك ، التى تنزل من نفسك منزلة الصديق المؤتمن الوفى .

أكانت ترتصد لى ، وتموه علىّ ، لتضعنى موضع اختبار قاس ، وامتحان عصيب . . . ؟

أكانت تتشمم ريح الخيانة، لتقدم لك كشف الحساب الختامىّ؟

أهذه وصيتك إليها قبل المغيب . . . ؟

أم كان ذلك صنيعاً عمدتِ إليه لأمر تخفينه . . . ؟

أأرادت أن تستدرجنى ، حتى أجد عندها الصدر الحنون ساعة يعوزنى إلى الراحة سبيل . . . ؟

الافتراض الأول أحق بالقبول والتصديق .

ليطمئن قلبك ولتهدأ نفسك !

لقد أنفذتْ صديقتك ما طلب منها أن تؤديه ، بذمة وأمانة وامتثال .

كانت رائعة فى الدور الذى قامت به .

أتجحدين إلى هذا المدى حدة ذكائى وشدة فطنتى ؟

أما كان الأجدر بك أن تدبرى حيلة أوفر التواء ، وأكثر تعقيداً ، تموهين بها على ؟

أحسبتنى ساذج الفهم ، قاصر الإدراك ، فقيراً إلى دقة حس ، ولطف إلهام ؟

يقينى : أن صديقتك ما كانت إلا الطعم الذى أدليته لى من شصك العتى ، تبغين به التعرف والتكشف والاستخبار .

أتنكرين خطر تلك التجربة ، وما عسى أن ينجم عنها من نزق وجماح ؟

دعينا نتخيل — جدلا — أن الفريسة لم تفطن إلى ما بيتت لها الخطة من تدبير طائش غرير . . .

هب أن الفريسة وقعت فى الشرك الذى نصب لها ، صريعة هوى مشبوب ، لا حيلة لها فيه . . . !

ولنطلق لخيالنا العنان ، نفترض أن الصائد استهواه ساعة الشواء رائحة الصيد الشهى ، فانثنى يقضم منه قضمات مريئة هنيئة يستمتع بها ويستلذ .

أينا خليق بالملام ومر العتاب ؟

الصائد . . . ؟

الفريسة ؟

أم المدبر الألمعيّ الفطين . . . ؟

أماعلمت أن اللاعب بالنار لا يأمن أن يصيبه منها شواظ ... !

الرجل فى ظنك خداع أثيم ، إن أرخى له الحبل جمح يستطيب العبث دون أن يصد نزوات نفسه ويصون العهد لأليفه الصفى .

أما أنا فاعتقدت أن الزوجة ما هى إلا جلاد عنيد ، لا يفتأ يسلط على رأس الزوج سيفاً مرهفاً ، يحد به من حريته ، وأنه لا يملك إزاء محنته تلك إلا أن يجنح إلى مخاتلة ومخادعة وتضليل .

لعلك تدركين إذن سر ما أصارحك به من اعتراف وإقرار...

لقد كنتُ لك عوناً على السفر ، إذ كان يداعبنى أمل الظفر بفترة حرية وانطلاق ، وأنت غائبة فى منآك البعيد .

أنا السجين الذى بشروه برحيل سجانه عنه ، فظن أنه سينعم حتماً بحياة بهيجة لا يشوبها حرمان وكبت .

تمثلت لى يومئذ القيود وقد ذابت ، والسدود وقد انهارت ، وانفسح أمامى الطريق للدعة والرتوع لا رقيب ولا حسيب .

فلتعلمى ما كان منى أثناء غيابك الطويل .

ما بدأت عجلة الأيام تسير بى ، وقد غاب وجهك عنى ،

وخلا لى الجو وحدى ، حتى حاصرتنى كآبة ، وداخلنى هم ، ولعبت بى حيرة ، فألفيتنى أنطوى على نفسى ، وأنسج حولى قيداً من فولاذ ألجأ إليه وأحتمى به .

وارتددت إلى عشنا الخاوى أوصد بابه علىّ ، لا أعايش غير طيفك الحانى أستدنى منه لنفسى الكابية ضوء الرجاء ، وشعاع الأمل.

وانكفأت أتساءل : أين الانطلاق الذى كنت أتطلع إليه وأحلم به ؟

رحيلك كشف لى فجراً جديداً لم أعهده !

ما كنت أحسب أن العيش بدونك له طعم كريه ، أتأباه وأنفر منه .

أمنكرة أنت على السجين إن هو خرج إلى النور ، والتقى بالهواء ، أن يعاوده إلى محبسه حنين وإلى سجانه شوق ؟

أمنكرة أنت على المخمور الذى نهكه الشراب ، وبرح به ، أن يتفقد الكأس لينهل منها ويعب ؟

أمنكرة أنت من العاكف على درس وكتاب ألا يفرح بما يتاح له من راحة وجمام ، وإنما يراجع ما عكف عليه لا تطيب نفسه بسواه ؟

أنت سجانى ، وأنت خمرى وكأسى ، وأنت كتابى ودرسى ،

وإنى لمتطلع إليك ، ومؤتنس بك فى محضرك ومغيبك على السواء !

فى الصيف نتأذى بحر الشمس ، فإن توارت عنا بالحجاب فى غمائم الشتاء الدكناء ، ترقبنا منها الشعاع واستجدينا الدفء !

أغاب عنك أنك حوّائى . . . ؟

من أضلاعى خلقت ، فما بغيرك يستتم لى خلق ، ولا يكتمل كيان .

عودى إلىّ .

عودى ، لألتقى فى سمائك بالحرية ، والانطلاق .

عودى ، أراجع معك العيش البهى .

عودى . . . عودى ، فقد انكشفت لى حقيقة أمرى ، واستبان لعينى السر الخفى .

* * *

كانت الزوجة جالسة عن كثب من جهاز التسجيل ، تستمتع بنبرات ذلك الاعتراف المستفيض ، يترنم به الشريط فى هدوء وأناة ، وقد افتر ثغرها عن ابتسامة الرضا ، وتبلورت فى عينيها المكحولتين دموع النشوة والزهو والاعتزاز .

وما يكاد الشريط الناطق يتم دورته ، وينقطع عن إنشاده الحلو ، حتى تستأنف الزوجة الاستماع إليه بشوق جديد .

ضابط الإيقاع

جاري الذى يقطن الشقة التى أطل عليها فى البيت المقابل لمغنانا رجل وسيم الطلعة ، ضامر العود ، بائن الطول ، فهو فى مظهره هذا ، ولا غرو ، صنو الأسبانى دونكشوت بعثته الأسطورة من بين دفتيها ، ممتشقاً ، عوضاً عن السيف والرمح ، عصا رشيقة يتكئ عليها ؛ ومذبة خصيبة يهش بها على هوام الطريق .

لقد تخطى جارى ، بفضل الله ، عامه الأربعين دون أن ينبه ذكره ، ويتألق نجمه ، وقد طوف مبكراً بأبواب الوظائف يطرقها ، بعد أن أقصته معاهد الدرس ، ولما ينهل من أفاويق العلم ، نهلة ظامئ .

وأصبح ذات يوم ، حبيس حجرة بالطبقة الأرضية من مبنى حكومى مضعضع ، ليس فيها بصيص من نهار ، يضيئها مصباح شحيح عكر ، وفى أرجائها تتكدس أضاميم منتفخة ، وأضابير تربة ، وكل إليه تنظيمها وتصنيفها وضبط ما حوته

ميزقها فى دفتر عريض ، جثم على مكتب أعرج ، خصص له ، فأسندوه إلى الحائط كيلا يهوى إلى الأرض كومة هامدة .

وظيفة ، أعلى الله قدرك ، خاملة الشأن ، مطمورة الذكر ، جعل جارى يغالب بها الزمن ، فإن أضيف أجره الشهرى إلى دخل يأتيه من منزل كهل، ورثه عن إحدى عماته ، ساغت له ، مع فاتحة كل شهر ، حياة هانئة ، وعيش ميسور .

بيد أن الأقدار التى أمسكت بتلابيبه ، تضن عليه بالشهرة والمجد ، خصته فى سماحة ، بذوق رفيع ، وحس مرهف ، وخيال خصيب ، وتلك على غير شك ، خصائص الفنان الأصيل .

هكذا توافرت له شقة أنيقة الرياش ، رشيقة الأثاث ، نالت منه الحدب والعطف ، فبسط كفه ، يكفل لها الوسامة والتأنق ، متجنباً وسائل التجمل الصاخب ، والزينة الصارخة .

لم تكن شقته مشغلته التى تملك عليه وقته وحسب ، بل استهواه الفن فى شتى مظاهره ونواحيه من أدب وتصوير ونحت ، أما الموسيقى فملكت عليه أقطار نفسه ، تملى عليه كما تملى الغانية على صاحبها ، ما تصبو إليه من رغاب ، فأفرد لها حجرة أطلق عليها « كعبة الإلهام » خصها بما تستوجبه الألحان



من آلات الطرب والرصد والتدوين حتى تمكنه إن هى شددت فى محرابها ، من معاشرة الأنغام أجل معاشرة ، ومن ثم تطاولت من « كعبة الإلهام » أسلاك كهربية ، زاهية اللون ، تحوّت فى الردهات بعودها اللولبى ، ملتحمة بمضخمات للصوت ، زانت جنبات الشقة بوجهها الأجرد المصقول ، لتهدى إلى جارى الأصوات ، أينما حل ، فى سهولة ويسر .

فكان يتراءى فى المستشرف الرحيب ، عند الأصيل ، على مقعده الأثير ، وبين يديه قدح القهوة يرشف منه كأنما يشيع قرص الشمس وقد تمايل فى الأفق منحدراً إلى مغيب ، على رنين الألحان الخوالد ، تتناهى إليه من « كعبة الإلهام » وكأنه كاهن مصر الأعظم يزف إلى « رع » رب الأرباب ، أناشيد الكهنة ، وتسابيح العابدين .

إن نزعات جارى كما تشهد بسيطة هينة ، وعلى الرغم من هذه البساطة الوادعة ، لم آلفه إلا دائم الشحوب ، محنى الهامة ، مكفهر الوجه ، لا تفارق فمه بسمة يائسة ، تنم عن نفس حزينة ، تختزن شجاها كما يختزن الإناء بخار الماء الفوار .

وإن أنت فتشت فى حياة الرجل ، هدتك فطنتك ، دون مواربة وعناء ، إلى خط ممدود ، لا يتنكب عنه جارى

ولا يحيد ، فإن متعت الشمس ، ولاح النهار ، ألفيت باب شقته ينفرج عنه ؛ أبرز ما فيه بزة أنيقة ، وبنيقة منشاة طوقت عنقه ، يطيف بها رباط للرقبة ، هادئ اللون ، أحكم عقدته ، فبرزت تحتل وسط البنيقة ، فى تأنق ، مضفية عليه مزاجاً من وسامة وبهاء .

ويتوخى جارى الطريق ، فى خطا وئيدة ، متباعداً عن الزحمة ، يتوكأ على عصاه ذات المقبض العاجى المفضض ، وعلى فوديه يستوى طربوش زاهى اللون ، على حين تتشاغل يسراه بمذبته ذات الذيل الخصيب يلوح بها عن يمين وشمال .

وما إن ينتصف النهار ، وينقضى وقت العمل ، حتى يتلقاه الحى مع حشد العائدين ، فلا يلبث أن ينغلق عليه باب شقته لا يريمها حتى يحين صباح ، فلا أجد سوى النافذة أتطلع منها إليه ، إذ دأب الرجل على أن يدع مصراع نافذته مفتوحاً ، ليستقبل بريق النهار ، فإن اتفق له أن لمحنى وهو منصرف إلى بعض شواغله المنزلية يصرفها ، توقف يبتسم ويحيينى بانحناءة من رأسه دون أن يجرى بيننا حديث ، فلا يسعنى إلا أن أبادله الابتسام وأن أرد التحية بمثلها ، ولا أعتم أن أرتد عن النافذة فى استحياء .

وسرعان ما تترسل على سمعى أصداء شجية لألحان رشيقة ، تجتذبنى إلى النافذة ، محركة منى كوامن الشجون والأحاسيس ، فأستلقى على مقعد مجنح وثير ، أتسمع النغم فى نشوة وشغف ، وأنظارى فى شقة جارى هائمة ترصده ، فإذا هو مسترخ على متكأ عريض ، يجتذب الدخان من غليونه ، وبين يديه كتاب يطالعه ، وقد أخلد إلى سكينة يساير الألحان فى لذة واستمتاع .

على هذه الوتيرة كان جارى يختم أمسيته بل أماسيه ، التى طالما شاطرته إياها .

وشدما كنت تواقاً إلى أن تربطنى بجارى هذا أواصر تعارف ومودة ، فأنا به معجب ، فلا يفوتك أنى ما زلت فى شرخ الشباب ، يستهوينى كل ما فيه تألق وبريق ، ولا يغرب عنك أننى بالموسيقى جد مشغوف ، أوطد العزم أن أقتحم ميدأنها أثبت فيه قدمى ، وأفوز منه بمكان مرموق .

ويوماً مثلت إلى النافذة ، وفى يدى مزمار ، أنا حديث عهد به ، أتدرب على النفخ فيه ، مشغولا بالنص الموسيقى ، أفك منه رموزاً وطلاسم ، تناثرت بين سطورها حصيات تغص بها عينى .

وباغتنى صوت رخيم يهمس لى فى تودد :

ما شاء الله . . . ما شاء الله .

ورفعت رأسى ، منحياً المزمار عن شفتى ، أتبين ، فابتدرنى جارى ، من نافذته ، بسؤاله :

أمغرم أنت بالموسيقى إلى هذا الحد يا عزيزى ؟

وأجبته على الفور ، تشوب صوتى مسحة الخجل :

كل الإغرام يا سيدى .

ــ أطال عهدك بالتدرب على النفخ فى المزمار الذى بين يديك؟

ــ إنى بالمزمار حديث عهد يا سيدى . . . لا أحسن الصفير بعد .

ــ أتجد التدرب عليه صعباً عسيراً ؟

ــ أصعب وأعسر مما تخيلت وحسبت .

وتوقف عن الكلام ، يتلاعب بغليونه وكأنه يدبر أمراً ، ثم نطق فى ضوته المنغم يقول :

ألك رغبة فى حضور حفل موسيقى ، تشهد فيه كيف يساس المزمار ، وكيف يغرد تغريده الشجى ؟

فتشاغلت بالمزمار ، أوارى استحيائى ، ووقفت جائراً لا أنطق ، فسمعته يقول فى تعاطف ولين :

لم تجب عن سؤالى . . . أبك رغبة فى حضور الحفل ؟

فبرقت عيناى وأنا أجيبه :

كل الرغبة يا سيدى .

ـ ما رأيك إن أنا دعوتك إلى الحفل بعد غد . . . أ أطمع فى صحبتك والائتناس بك ؟

ـ عفواً يا سيدى . . . بل أنا المتشرف بما تدعونى إليه .

ـ سأدعوك ، ولكن لى عليك شرط .

فتطلعت إليه والبغتة تعقد لسانى ، أقول :

وما الشرط يا سيدى ؟

أن تكف عن مخاطبتى على هذا النحو من التحفظ والكلفة .

ـ إرادتك يا سى . . .

وأسكتنى بإشارة من يده ، ثم قال فى تضاحك ، وهو يمط شفتيه :

ـ لقد تم الاتفاق . . . أليس كذلك ؟ . . . لنا لقاء بعد غد . . . سعدت أمسيتك .

ثم أومأ برأسه إيماءته المألوفة ، وتباعد عن النافذة ، تغيبه خطاه ، على حين أقبلت على المزمار أحتضنه فى تودد ، وأتواثب من فرح ، متطلق الأسارير .

ولما أخذ الجهد منى ، ارتميت على المقعد مبهور الأنفاس ، وما عتمت شفتاى أن التحمتا بالمزمار ، فانبعث منه صفير مهوش ، يعربد فى الحجرة ، وكأنه صيحات الصبية وهم منصرفون إلى عبثهم يمرحون .

وحل موعد الحفل .

وبرزنا أنا وصديقى الجار إلى المسرح الكبير .

وضمنا الصف الأول إليه ، نحتل منه أكرم مقام ، فلا يعوق المسرح عن أنظارنا عائق .

وانصرف صديقى يرقب الموسيقيين على منصة المسرح ، وقد تشاغل كل منهم بمعزفه يتفحصه ويضبطه ، ويعده الإعداد التام ، ريثما يبدأ العزف ، فاضطربت القاعة بدندنات سقيمة ، تفتقر إلى يد حازمة تتحكم فى فوضاها ، وتحسم ما سادها من تنافر وشقاق .

ويطن فى البهو صليل جرس .

وتتخافت الأنوار وتنكمش .

ويندلع من أقصى القاعة نور باهر ، وإذا هو يهبط نسجاً من الأشعة على المسرح ، كأنه قرص الشمس الوهاج يلقى على الكون تحية الإصباح ، فتتبدى منصة

المسرح ماسة فريدة تضوئ وتتألق .

ولا ينقضى بنا كبير وقت حتى ينفرج نسج الأشعة عن « ضابط الإيقاع » يفرق سبيله بين مقاعد العازفين ، تهديه خطاه النشيطة إلى منصة القيادة ، متأنقاً فى لباس السهرة ، فانبرى صديقى يضرب كفيه فى حماس ، ولم تلبث أن ضجت القاعة فى إثره بعاصفة من تصفيق ، فانحنى القائد من فوق منصته انحناءة رشيقة ، يرد بها التحية ، ثم اعتدل يواجه حشد العازفين ، ترتفع يمينه بعصا القيادة ، فتعلقت به أنظار الموسيقيين ، تنتظر الأمر منه فى انتباه ، على حين انصرف هو إلى أوراقه يجرى عليها عينيه ، ويجمع فى رأسه شوارد النغم .

ويسود القاعة سكون سابغ .

وتصدر من القائد الإشارة ، وتتحرك الآلات ملبية النداء ، وتسيل الأنغام محكمة البنيان يؤازر بعضها بعضاً فى تآلف وتعاطف وانسجام .

ولا يفتأ جارى الصديق مشدوداً إلى مقعده ، تنعقد أنظاره بعصا القيادة وهى غادية رائحة بين الآلات توقظ تلك وتنيم تلك ، آناً هى ثائرة تستصرخ الصنوج ، وتقرع الطبول ، وتعنف بالأصوات فى صلصلة وقعقعة وضجيج ، كأنما الرعود

تصطفق ، وآناً هى مسالمة تجنح إلى تلاطف وتعاطف ولين ، فترق الألحان وتخف ، كأنها وسوسة الماء أو همسات النسيم ، تنساب بين الخمائل والمروج ، فيشدو الكمان بصوته الحنون، ينبى فى عذوبة لحنه ، عصف الرياح ، واصطفاق الرعود .

ولا يفوتك أن تأخذ ضابط الأنغام ، من فوق منصته ، لا يستقر ولا يهدأ ، يشرئب ويتقاصر ، يثور ويموج ، يسالم ويلاين وفق ما تمليه الألحان .

وعرضت منى التفاتة إلى جارى الصديق ، فألفيته يتطلع إلى « ضابط الإيقاع » تطلع الوثنى إلى صنمه المعبود فى إكبار وخشوع ، ويده تحاكى تلويحات عصا القيادة مطاوعة فى طرب إيقاع النغم ، وقد التمعت عيناه ، وتورد خداه ، فتلاشى شحوبه المألوف ، ونضح محياه بالبشر والإشراق .

وما إن انتهى العزف الختامى حتى انبعث جارى يضج بالتصفيق ملوحاً بيديه ، ويصيح فى اهتياج صيحات المديح والثناء .

وزايلنا القاعة إلى بهو المسرح الكبير نستمرئ صدى الألحان ، ومال علىّ ، ونحن فى منصرفنا ، يقول والحماس باد عليه :

البرنامج رائع . . . والأداء أروع . . . أما « ضابط

الإيقاع » فإنه ، حفظه الله ، قد استنبط نزعات المؤلف ومقاصده ، فساس الألحان عن فهم عميق ، ودراية واسعة ، جعلته ، ولا ريب ، يكفل سمو الإنشاد وبراعة الشدو .

وامتد الحديث بيننا وتشعب ، حتى إننا لم نشعر بوحشة الطريق فى مثل هذه الساعة الواغلة من الليل ، وشارفنا الحى الذى نسكنه، فشد صديقى الجار على يدى ونحن نفترق، يقول:

الحديث له بقية . . . أنا فى انتظارك عصر غد . . . عندى . . . فى شقتى . . . سوف أسمعك من روائع الألحان ما يطربك . . . هيا ، لقد تأخر بنا الوقت . . . لا أريد أن أثقل عليك . . . إلى غد .

وفى أصيل الغد ، مثلت فى « كعبة الإلهام » أطوف بها مؤتنساً بما ضمته إليها من طرف وألطاف . وراعنى فيما راعنى ، عصا للقيادة ، رقدت بعودها المشيق على حامل معدنى دقيق ، فوق مائدة مستديرة ، تحف بها دمى من الخزف ، تمثل حشد الموسيقيين فى جوقة متكاملة العدة والعتاد ، يتوسطهم مصتف موسيقى ، لمقطوعة مأنوسة .

فوقفت أزجى إعجابى لجارى الصديق ، مطرياً فيه حسن الإخراج، فاضطرب فى وقفته، وانكب على عصا القيادة ينزعها

عن حاملها المعدنى ، وأمسك بها يضغط عليها فى رفق ، متشاغلا بها ، ثم أقبل على الدمى الخزفية يرعاها فى نظرة حانية وهو يغمغم:

هذه هى دنياى يا عزيزى الصديق ... دنيا الأنغام والألحان ... إنها فى هذه الصور المتواضعة تحقق حلم حياتى العريض .

فقلت له يملؤنى الإعجاب والتحمس :

يا له من عالم عزيز علىّ ... محبب إلىّ !

وتنهد صديقى الجار تنهدة جياشة ، وهو يتابع قوله راعش الصوت :

لقد عشقت أنا الآخر هذا العالم الرحيب ، وودت أن أصبح فيه علماً من أعلامه النابهين .

— وما الذى حجبك عنه ؟

— أبى يا عزيزى الصديق ... ما كاد ، سامحه الله وعفا عنه ، يقف على رغبتى فى الالتحاق بمعهد الموسيقى ، أستكمل فيه دراستى العالية ، حتى استشاط غضباً يكرهنى على إذعان وسكوت ، على حين أخذ يرسم لى الطريق الذى وجب علىّ أن أسلكه ، ويشق آفاق حياتى ، فيرانى طبيباً مرموق القدر ، يشار إليه إشارة السمو والإكبار ... أما أن أصبح صانع

أنغام فهذا ، على حسب حدسه ، مضلة وغواية ، معبثة وخسارة وضياع ، لن يرتضيها لى مهنة يتبناها ويباركها . . . وطال بنا النقاش وتشعب . . . وأخيراً احتد بنا الجدل يجرنا إلى مفاصلة وفراق . . . فأخليت له وجه البيت ، ورحلت إلى عمة لى ، أثق بها ، أطلب عندها الطمأنينة والعون . . . فطيبت خاطرى ، وكانت رقيقة القلب عطوفاً . . . ووعدتنى ، فى فيض من إعزاز ومحبة ، التوسط لدى أبى . . . ولما سمع لها ، علا صوته مهدداً إياها بقطيعة وشقاق إن هى لم تكف عن هذا الهراء المقيت . . . وأقسم ، وما أغلظ قسمه ، إنه لن يرضى عنى ، ولن يقبلنى تحت سقفه طالما تردد له فى الحياة أنفاس ، وإن سعيت أسف التراب عند قدميه . . . ورجعت عمتى من لدنه مبتئسة تسح دمع الخيبة والإخفاق ، وتدعونى إلى تجلد وصبر . . . وضاقت بى رحاب الحياة . . . فانقطعت عن الدرس متذمراً ، أرفع راية العصيان ، وانبريت أواصل الحياة ، وأتكسب العيش ، دون أن تمتد يدى إلى معونة أحد .

والتحقت بالحكومة ، أضرب فى مجاهلها ، كأنى جواب آفاق ، أخطأ الطريق المرسوم ، فتاهت به خطاه فى أحراج غير مطروقة ، فتناساه الناس ، حتى تناسى نفسه هو الآخر ،

فلازم يأسه ، وانقطع عن الحياة يستمرئ العزلة والتفرد ، مستكملا فى تعثر ، ما تبقى له من أيام . . . وما إن توافرت لدىّ بقية من مال حتى عكفت على « كعبة الإلهام » أشيدها مثابة أتصيد فيها لحن حياتى الضائع ، ومناحة أسكب فيها الدمع على حلمى العريض الذى وسده أبى التراب فى عناد .

وانقطع جارى الصديق عن إنشاده ، يزدرد ريقه ، وكأن حنجرته شرقت بالعبارات ، فسعل يواصل حديثه ، مبهور النبرة ، متقطع الأنفاس ، وهو يتقدم من المائدة المستديرة ، يعيد عصا القيادة إلى حاملها المعدنى ، وقد ران عليه تخاذل وشحوب ، وسمعته يقول خافض الصوت :

مالى أرانى أحدثك هذا الحديث الكدر . . . هيا بنا إلى المستشرف . . . الشاى معدّ . . . أخشى أن يكون قد برد لطول الانتظار .

وضمنا المستشرف نحتسى أقداح الشاى ، وعلى أسماعنا ترسل الأنغام شجية حنوناً ، جادت بها علينا « كعبة الإلهام » ، فانسرح جارى الصديق مغرقاً فى صمت ، يرنو إلى قدحه ملياًّ وقد اكفهر وجهه ، وشاهت خلقته ، واستولى عليه تطامن وقنوط ، كأنما هو الشجرة العجفاء أثقلها مر السنين ، فجف

عودها ، وتجعدت قشرتها ، تكاد تتقصف هاوية ، تودع الحياة .

فأمسكت بيده أسأله :

أ أنت بخير ؟

فضغط يدى يهمهم فى لهجة وادعة :

لا تنزعج . . . أنا بخير .

فودعته ، ولجأت إلى بيتى ، بروأ بما وعيت من حديث كئيب ، أرمى أباه فى ثورة من غضبى ، بالغفلة والجهالة والبله .

وتوالت أيام .

وظلت نوافذ جارى مغلقة على غير المألوف .

وساورتنى فى شأنه ظنون .

وذات عشية ، جاءتنى ، وأنا جالس إلى المزمار أتدرب عليه ، أصوات موسيقية تجيش بالأنغام فى خشونة وغلظة ، وتجأر بالألحان فى شدة وصلابة ، كأنما هى ضربات المعاول على صخر أصم .

فهرعت إلى النافذة أتشوف وأتكشف ، فصدمت بجارى الصديق فى « كعبة الإلهام » يلوّح بعصا القيادة ، وقد اعتلى

مقعداً ، وأقبل على الدمى تلك الأقزام الخزفية . كأنما غدت فوق المائدة المستديرة ، عمالقة العازفين على منصة المسرح ، تستجيب إلى تلويحاته فى طواعية ، كلما حرك عصاه ، يضرب بها الهواء على إيقاع الأنغام ، ترددها آلة التسجيل فى أقصى الحجرة ، فإن هى تراخت وشفت ، سكنت إيماءاته ورقت ، وإن اشتدت وعصفت هاج وماج ، والعصا فى مهب الأنغام حائرة راعشة ، تغدو وتروح فى اضطراب كأنها أصيبت بمس محموم .

وبغتة كف جارى الصديق عن التلويح ، تستبد به نوبة من نشيج ، فنحى العصا يقصف ظهرها ، وراغ إلى الدمى الخزفية يبطش بها ، وامتدت يده إلى المصنف الموسيقى يمزقه شر تمزيق ، وتشعثت حركاته ، واضطرب المقعد من تحته ، واختل منه التوازن ، فانبسط على الأرض بعوده السمهرى ، واستقر فى سقطته دون حراك ، يشخب الدم من جرح أصاب جبهته ، على حين ظلت الألحان تتدافع عنيفة صاخبة ، تنكر فى ثورة عارمة ، ما حل بعشيرها ، فى الحياة ، من عسف الجحود والإنخفاق .

إفلاس

كان « محسن العتر » ملقى على فراشه فى حجرته الخربة يعانى تباريح الإفلاس والعسر .

لقد أقفر جيبه إلا من قروش عشرين ، هى الصفوة المتخلفة من الجنيهات العشرة التى يتقاضاها من عمله الحكومى فى خاتمة كل شهر .

كان ممدوداً على سريره فى خمول ، يتجرع على مضض كأس السأم ، إذ حبس نفسه فى ذلك القمقم المعتم ، موفراً على جيبه نفقات لهوه التى تمتص القدر الأوفر من دخله الضئيل.

إن الليالى كانت تمر عليه وكأنها قرون طوال ، بل كأنها كابوس جاثم يتمثل فيه حطام حياته الخاوية .

وتقلب على الفراش يشعل لفافة تبغ ، وما لبث أن انسرح يعب أنفاسها ملياً ، يجاهد يائساً أن يعيد السكينة إلى نفسه الحائرة.

ولما لم يفلح ، صدف عن مضجعه يذرع حجرته فى خطا متخلعة ، كارهاً أن يكون ذلك القمقم العفن مجاله الأوحد

الذى يستنيم إليه ويتنفس فيه أنفاس الحياة .

إنه يختنق . . . وإنه ليحس روحه تحتدم بين جنبيه ، وتحثه على توثب وانطلاق فى رحاب من اللهو عراض .

فوق مقدوره أن يحجب عن أنظاره بعد الساعة ما فى الدنيا الواسعة من مباهج وألطاف .

وتفلتت منه نظرة إلى الحارة وهو عن كثب من النافذة فألفاها تمور بالحركة وتمرح فى الأضواء .

وما عتم أن تراءت له فى أقصى الحارة قهوة « السرور والأمل » أكثر ما تكون إغراء ، فقد تدلى من جبينها مصباح نفط يتوهج ، وقد أخذ فى زهو يبعثر بسماته المشرقة يمنة ويسرة كلما هزته خطرات النسيم .

ولم تكن أذناه بأدنى حظًّا من ناظريه ، فقد ترسلت عليهما أنغام شجية ، من مذياع القهوة ، فحركت فى نفسه كوامن المشاعر ، فانبعث ينقر حافة النافذة بأصابعه لاهياً يساير الإيقاع .

ومثل العتر يتمطى باسطاً أوصاله الخاملة ، وقد فرطت منه تثاؤبة عميقة كأنما تزيح عنه التبلد والجمود .

ماذا يضيره إن انغمس فى غمار هذا النشاط البهيج ؟

قدح القهوة لن يبتز من جيبه إلا قرشاً ، وإن تمادى فى عبثه فقرش آخر يؤديه لقاء لعبة النرد .

ومن يدرى ؟ ربما يعلو حظه فيربح من المراهنة عوض ما يدفع فى القهوة شهراً أو يزيد .

وما هى إلا أن زايل قمقمه وخرج إلى الشارع يلتقى بالحياة فتترنح أعطافه ترنح الرضا والاستبشار .

وكلما نشطت خطاه تدانيه من القهوة توضحت له عامرة الأرجاء يسودها نشاط متجدد .

أين هى من حجرته المتفردة وقد لفظها البيت على سطحه نائياً بها عن أطايب العيش .

القهوة ولا جدل هينة المنظر ، شرقة الجدران بأبخرة لفائف التبغ والنراجيل تتعقد فى سمائها كغمامات زرقاء .

وهى فوق هذا مجتمع أسقاط الحارة من الشبان المتسكعين يختلفون إليها ما غابت الشمس وسجا الليل ، لا مشغلة لهم إلا المشاكسة والشجار ، وقد تتعالى أصواتهم جهورية الجرس لا تحسن إلا التفوه بالمتهافت من القول والتافه من الحديث .

ما كان « لمحسن العتر » أن يلجأ إلى مثل هذا المنتدى الرخيص لو أن جيبه المفلس عامر بجنيهاته العشرة .

أما يكفيه الليلة أن يأنس بذلك المذياع وهو يغرد تغريده المأنوس والسمار من حوله يرددون الآهات كلماهب عليهم نغم حنون .

أما يكفيه منظر خادم القهوة وهو يخب فى أطماره البالية يخوض طريقه بين المناضد ، يجيب هذا إلى مطلبه وينحنى على ذلك يسأله ما يطلب ، وإذا ما رفع عقيرته بالطلبات ، مطط حروف كلماته فى ترنيم يلذ للأسماع .

أما تكفيه هيئة المعلم «سرور» صاحب القهوة وهو مستديك على مقعده كالصقر المجنح يتابع غلامه فى بالغ من الحرص محصياً عليه الحركة ، وقد استوت أمامه النارجيلة تتوهج على رأسها الأغبر قطع الجمر كلما جذب إلى صدره منها نفساً ، وكرشه المنتفخة ترتنح على فخذيه فى بدانة وترهل .

كل ما فى القهوة يدخل عليه الرضا والسرور .

وجلس « العتر » يشغل نفسه بجريدة مسائية أهملها أحد السمار بعد أن اشتف منها عصارة الأخبار ، فألقى بها حيث هى على المنضدة ورحل .

وتناولها صاحبنا يقلب صفحاتها ملولاً ، وعيناه تتواثبان على عناوينها البارزة دون أن يشغل باله بخبايا السطور ، حتى

تعثرت آخر المطاف بعنوان ضخم لقصة أثارت فضوله ، وألهبت فيه حماسة القراءة ، إذ كان ممن يستهويهم الأدب وخاصة القصصى منه ، وفوق ذلك فصاحب القصة علم من أعلامها . وخدين له ، درسا فى مدرسة مشتركة وهما فى ميعة الشباب .

لقد حمل كل من الزميلين لصاحبه ذكريات مشحونة بحقد وبغضاء ، لما نبت بينهما من تنافس على قلب امرأة : فتاة من فتيات الليل لا ضمير لها ولا قلب ، تهب حبها عطية ميسورة لمن يغدق عليها المال فى سماحة وسخاء .

ظفر بها العتر على منافسه الأديب .

لم تكن الحيلة تعوزه .

إن أباه من هواة التحف الأصلاء، له منها مجموعة فريدة تتناقل حديثها المحافل والمجتمعات .

وامتدت يد « العتر » تعبث بها ، فكان ينفق على غانيته ندىّ الكف بما يتوفر له من مال أبيه المسلوب .

ولما افتضح أمره طرده أبوه من المنزل يمسك عنه ويضن عليه ، فتقطعت به سبل العيش، وتنكرت له الغانية ، وناصبته العداء .

وها هو ذا يصبح تافه الشأن مطمور السيرة يتكسب فى غير يسر .

ونشط « محسن العتر » يقرأ الصحيفة وعلى فمه تتموج بسمة شاحبة تنم عن حفيظة وغيظ . إن القصة تفيض بالأحداث المثيرة والمواقف العنيفة فى أسلوب شائق ، وحبكة فنية وخيال خصب ، وسمو من تفكير .

وصفق « العتر » يطلب قدح قهوة ثم أشعل لفافة تبغ ، واسترخى فى جلسته يتابع المطالعة .

وألفى « العتر » نفسه وسط زوبعة عارمة ، فريسة لغضب جامح ، وثورة عمياء .

تبين له أن صديقه الأديب قد عرج على الماضى يستخرج الحوادث السوالف من لفائفها ينمق بها قصته .

لقد أطلق اسمه على الشخصية الأولى كاملا دون تبديل أوتعديل، ووصفها بكل مرذول من النعوت، فهى دنيئة المنبت، خبيثة المقصد ، منطوية على شر .

وتململ « العتر » فى جلسته يعض على نواجذه .

كيف يزج باسمه فى قصة محورها الأول والأخير جريمة غش وخداع وتزوير ؟

هل ابتغى صديقه الأديب أن ينتقم منه معيداً إلى الحياة ما أسدلت عليه أستار النسيان ؟

كرامته أهدرت لا ريب . . . أهدرت على نحو مبتذل لا يرتضيه حر .

لا أقل من أن يثور لشرفه المسفوح ، وكرامته الجريح .

وطوى الجريدة يدسها فى جيبه وفى نفسه عزم على قصاص .

ولمعت فى رأسه فكرة .

عليه بصديقه القزم « سعدون » وكيل المحامى . . . لا مرية أنه واجد عنده السلاح القاتل الذى يبحث عنه .

عليه به دون إبطاء ، وإن كانت الصلة بينهما قد انقطعت منذ وقت سلف ، إثر شجار هب بينهما ، كالإعصار الجارف ، وهما يلعبان الورق ذات ليلة . .

لقد تبين لـ « سعدون » أن صديقه « العتر » يخفى فى كمه بعض الورق ، فإن خذله الحظ ولاحت الخسارة والهزيمة ، استجدى كمه يطلب منه العون والتعويض .

تبين لـ «سعدون» أن صديقه مخادع محتال ... لص غشاش .

لم يتمالك « سعدون » فنعت « العتر » بالمخادعة واللصوصية على مرأى ومسمع من الأشهاد فى صوت جهير كأنه هزيم الرعود .

وزجره « العتر » فلم يمتثل بل تمادى يلعن ويسب فى جرأة وحماس .

وتظاهر «العتر» بالثورة دفاعاً عن شرفه ، وسرعان ما نشب بينهما شجار .

وشيع « العتر » القهوة في تلك الليلة المشئومة متورم الأنف ، تظل إحدى عينيه غمامة زرقاء .

صدف « العتر » عن قهوة « السرور والأمل » تهديه قدماه إلى حارة متربة غير ممهودة بحى القلعة ، وصعدت به أربع طبقات إلى حجرة تشبه الجحرمن منزل متوحد يشرف على خرائب ثلاث .

ومد ساعده إلى الباب ينقر عليه فى رفق ، ولما لم يُجب إلى ندائه احتد فى طرقه حتى وضح له من خلف الباب الزجاجى شبح « سعدون » قادماً مترنح الخطو : عود متقاصر ، وظهر مقوس يحمل بين كتفيه حدبة كأنها سنام بعير ، وقد أمسك«ساهرة» عكرة الضوء، فيهاشمعة ترنح ذبالتها من ضعف.

وانفرج الباب .

وتواجه الصديقان .

فعجل « سعدون » إلى مصراع الباب يوصده ، لولا أن مد « العتر » قدمه يحول بين « سعدون » وما يريد .

وزأر القزم فى توقح يقول :

ماذا تبغى . . . ليس لك مكان هنا . . . انصرف . . . ما بيننا انتهى . . . قطع إلى الأبد .

ولاح « للعتر » أن صديقه القزم مخمور تتلاعب برأسه الصهباء ، فاستبشر خيراً ، وواجهه فى مسكنه يقول :

ـ ألا تمد يد العون إلى صديق مأزوم ... فى حاجة إليك ؟

ـ لا يهمنى . . ليس ثمة صداقة تربط بيننا .

ـ ألا تغفر له إساءته لك .

ـ لست الله لأغفر الذنب .

ـ وإن أتاك تائباً يطلب عندك العفو والصفح .

ـ الله وحده صاحب العفو .

ـ ألا تتذكر العيش والملح الذى تقاسمناه وأكلناه معاً .

ـ أتذكر أنك خذلتنى . . خدعتنى . . غررت بى . . . سلبت مالى . . . كفانى هذا القدر .

وترنح « سعدون » فى وقفته وأوشك أن يتهاوى ، فخف « العتر » إليه يسنده ، وتناول منه « الساهرة » كيلا تندلق فتندلع منها النار .

لم يكن بالحجرة أثاث إلا متكأ من الخشب هزيل ، ومقعد تفسخت قوائمه وانتفشت حواشيه ، فاتخذه « العتر » لنفسه

مقاماً ، مخلياً المتكأ لصديقه القزم .

ولما استوى « سعدون » فى مكانه ، واطمأن فى جلسته ، انبعث يبحث عن زجاجة الخمر ، وأقامها إلى فمه يعب منها ثم قدمها إلى صديقه « العتر » الذى كرع منها كرعة مديدة ، فلما أحس بوقدة الشراب تسرى فى أوصاله ، أرجعها إلى صديقه القزم .

ولما ألفاها « سعدون » فارغة شهرها فى وجه صديقه وهو يجمجم فى صوته المخمور :

سوف أحطمها على رأسك وأنتهى منك . . . ما الذى ساقك إلى هنا تعكر صفو أنسى . . . هيا ، عليك بالباب .

وغمغم « العتر » فى انكسار :

أهكذا يستقبل الصديق ؟! . . .

— دعنى لزجاجتى هذه . . . كلانا صديق للآخر . . . هيا . . . ارحل ؛ عجل وإلا هشمتها على رأسك .

لم ينبس « العتر » ، وقصد النافذة يفتح وصاوصها ، فغزا الحجرة نسيم تشيع فيه أنفاس المساء ، ثم قفل إلى صديقه يبسط الجريدة بين يديه ويلوك تلك الكلمات بين شدقيه :

هذه هى التى دفعتنى إليك . . . ثمة ثأر يؤخذ وشرف

يرد . . مسألة قانونية أود رأيك فيها .

ظل « سعدون » صامتاً كأنه يشحذ ذهنه مستوحياً الفكر .

كان رجلاً كريم الخلق ، صاحب مروءة وفضل ، إن هو استشير فى أمر نسى حقده وشمر عن ساعديه يسدى النصح .

كيف يبخل برأى على مأزوم ويأبى الدفاع عن مهزوم ؟

أليس المحامى فى ساحة العدل جندياً وهب نفسه ووقف علمه دفاعاً عن حق مهضوم .

وما « سعدون » القزم إلا ذلك الجندى الذى يساند العدالة ويساعد القانون وينصر الحق .

وبعد لأى انعطف على صديقه « العتر » يربت يده ويسر إليه قوله :

ما الوقائع . . . علىّ بها . . . اقتضب فى السرد . . . كن واضحاً . . . أبرز موضوعك دون إسراف فى قول . . . الاقتضاب خير دليل على الصدق .

وأذعن « العتر » لما أمر به ، وتناول قصته فى إيجاز ، و« سعدون » يسمع إليه بملء أذنيه .

فلما تزود بما أراد صدرت منه إشارة إلى صديقه يسكته .

وغاب صوت « العتر » وهو يردد قوله :

أكفاك ما سمعت ؟

ــ أوَتحسبنى غبيًّا لا أعى . . . حسبي منك إشارة أو تلميح كى ألمّ فى غمضة عين بخبيئة الأمر .

ــ ألست على حق . . . طمئنى حماك الله .

ــ التشهير واضح . . . سوء النية متوفر . . . خصمك فى قبضتنا . . دعواك حتماً رابحة . . . غداً أكتب عريضة الدعوى . . . وبعد غد أتقدم بها إلى القاضى أثأر لك وأقتص . . . سأنتزع منه الحكم الذى ترضاه فى الجلسة الأولى ولا ريب . . . عول علىّ . . . « سعدون » يعرف من أين تؤكل الكتف .

وهتف « العتر » وقد لعبت برأسه الخمر :

نعم المدافع أنت !

واعتدل « سعدون » يجيب صديقه مغمغماً :

لى شرط .

ــ شرطك مقبول على العين والرأس .

ــ ماذا يكون نصيبي ؟

ــ ماذا تعنى ؟

ــ الأتعاب !

ـ لك ما شئت . . .

ـ التعويض . . . نتقاسمه !

ـ اتفقنا .

ـ سجل ما قلت .

وسجل « العتر » ما أملاه القزم عليه فى ورقة بالية قدمها له « سعدون » وبعد أن مهرها بإمضائه دسها «سعدون» فى جيبه ؛ ثم انعطف الصديقان يتدارسان خطط الهجوم ويقرران تفاصيل المعركة ، وكلما شدد « سعدون » هجومه يكشف مواقع الضعف من خصمه انسرح « العتر » فى تفكير يحصى الغنم ويعد أوراق النقد وكأنها نجوم لوامع تهبط من السماء تغرقه فى بحبوحة من العيش .!

وسرعان ما نال الجهد من الصديقين فانكفأ كل على صاحبه ، وما لبث أن تعالى فى الحجرة غطيط على حين لاحت تباشير الفجر فى الأفق تؤذن بمولد يوم جديد ، وقد ارتسمت على قسمات وجههما ابتسامة بلهاء تنبئ بما يتخايل فى رأسيهما من أفكار ثراء عريض .

نور وهّاج

قصة سمعتها فى صباى ، أعرضها عليك ، غير معنى بتجويد أو تنميق ، إنما أنا أسوقها إليك فى بساطتها كما وعيتها منذ سنين .

صاحبها الأوحد ، غطريف من غطاريف الريف الموسرين ، لم يكن يقبض يده عن مبرة ، ولا يحجبها عن فضل ، فما فتئ بابه مقصداً للعفاة السائلين ، يتحلقون عليه فى كل يوم ، راصدين السبيل .

إن هو أهلٌ عليهم ، بذل يده بالعطايا والهبات ، لايصرف عنه أحداً منهم إلا عامر الكف ، ندى اللسان بالمدح والدعاء .

لقد أضحى غطريفنا ، على مد السنين ، نابه الذكر ، تتداول الألسن اسمه فى أحاديثها ، حتى عرفته القرى النائية ، فى أحشاء الريف البعيد ، فاهتزت لكرمه ، تصدر إليه بضاعتها من عفاة القوم ، كأنه المنارة المتألقة ، تهدى إليها فى خضم الحياة ، التائه والشريد .

ويوماً وفد على القرية وافد هو عنها غريب ، يطوى فى ردائه طيف المنون ، إذ تفشى فيها وباء خبيث ، لا يرحم صغيراً ولا كبيراً ، إلا استلبه من أهله ، كأنما يتقاضاهم ضريبة محتومة الأداء ، فيشهدك كل يوم جدثاً رطباً جديداً ، تنضم جنباته على رفات من أهل القرية عزيز .

لم يأل غطريفنا جهداً فى مواساة جيرته ، باذلاً لهم المؤن والعقاقير ، حتى تغشته غاشية المرض ، فلزم داره ، صريع الحمى ، ليستبين فيه نذير الفناء المحتوم : وجه شاحب مصفر ، وصدر يعلو ويهبط ، وفم منفرج ، يتلمس أنفاس الهواء لصدره المقرور .

وما إن دنت ساعته ، وحان أجله ، حتى صحا صحوة الموت ، وثاب إليه وعيه ، فغمغم متثلم الصوت :

اللهم هذا مصيرى المحتوم . . . فما مصير فقرائى المحاويج ؟ !

ثم أغمض عينيه ، يجود بأنفاسه .

وصعدت روحه إلى بارئها ، تسكن جنة الخالدين ، ما فى ذلك خلف ولا تكذيب .

هذا ما كانت تخوض فيه معارف الرجل ، وهم من وراء نعشه ، يشيعونه إلى مقره الأخير .

ولغطريفنا الراحل ، خدين لازمه منذ الطفولة الباكرة ، إذ ضمتهما إليها مدرسة واحدة ، ومن ثم تواصلت بينهما وشائج ألفة ومودة ، ما زادتها الأيام إلا تأصلا وقوة .

لم يكن بينهما سر مطوى ، أو خبر مستور ، فكلاهما ينفض جعبته لصاحبه فى مصارحة وصدق .

وجلس الخدين فى مأتم صديقه الراحل ، يتقبل فيا التعزية ، وقد انسرح به الفكر ، يرده إلى عهد الطفولة اللاهية :

واستبان له فناء المدرسة العتيد ، يفور ويمور بالتلاميذ ، وتبدى له غلامان لم يتخطيا العاشرة بعد ، كلاهما دائب التوثب والمرح ، وفى يد كل منهما قطعة من الحلوى يحشو بها فمه ، والأخدان من حولهما منصرفون إلى لهوهم يتصايحون و يتلاعبون .

وما يعتم الناقوس أن يدق دقات معلومات ، هى إشارة منه إلى بدء الدراسة . فتخفت الحركة ، ويسود الفناء سكون ، ولا يلبث التلاميذ أن ينتظموا فى سطور متساوية كأنهم جند مصفوف .

وتصدر من ناظر المدرسة إيماءة ، يتحرك فى إثرها ذلك الجمع ، صاعداً إلى فصول الدرس والتحصيل ، فى نظام وخشوع .

ويمتاز يوم الاثنين فى هذه المدرسة على غيره من أيام الأسبوع بشرف عظيم ، ذلك أنه الموعد المضروب الذى تجمع

فيه هبات الأريحيين من التلاميذ ، صدقة خالصة لوجه الله ، تبذل بالطوع ، فليس على من يحجم عنها من تثريب ، وليس على من يقدم عليها من عنت .

كان لكل فصل رائد يجمع التبرعات ، فى يده سفط مهندم صغير ، يتلقى فيه من أقرانه ما تسخو به أيديهم وتجود .

وكانت التبرعات تجمع عادة ، فى درس الدين ، فما إن تسفر عمامة الشيخ[٩] « خير الله » على باب الفصل ، حتى يصدر أوامره بجباية الصدقات ، فيطوف رائد الفصل ، بين أقرانه ، بالسفط يثقله بالمنح والهبات ، ثم يرتد إلى الشيخ « خير الله » ، يفرغ بين يديه ما اجتمع لديه من عطايا ، فيزيدها الشيخ بخمسة مليمات ، هى فريضته التى آلى على نفسه أن يؤديها فى الأسبوع بعد الأسبوع ، يجعلها قدوة حسنة ومثلا يحتذى . وسرعان ما يصر النقود فى منديل مخطط عريض يحكم عقدته ، ويستوعبه صدر قبائه فى عناية وحرص ، ومن ثم تبدأ الدراسة فى نشطة ، ولمسطرة « سيدنا الشيخ » على أيدى المتخلفين من تلاميذه صولات وجولات .

إن الشيخ « خير الله » رجل صالح ، واوع بالخير ، مطبوع اللسان على ذلاقة وحسن بيان ، قصارى همه حض الناس على تقى وصلاح .

منطقه فى ذلك هو منطق الدين الحنيف ، إذ لا سعادة فى مجتمع ، يقوم على الأثرة والأنانية .

وكثيراً ما اقتطع من الدروس وقتاً ، يبسط فيه ما لصنائع المعروف من بركة ونفع ، مهيباً بأبنائه التلاميذ أن يقتصدوا فى نفقات لهوهم ، ليقدموا مدخرهم حسبة لوجه الله ، كى يعين أسرة اغتال المرض عائلها أو كسيحاً التقمت السيارة ساقه ، أو مقعداً لا قدرة له على تكسب وعمل . وما يزال مسهباً فى عظاته حتى يختتمها وهو يمسح على وجهه ، بالقول المأثور : « الحسنة بعشر أمثالها » .

وما أكثر ما كان الصبى يخلو بالشيخ « خير الله » ، فى غير أوقات الدرس ، يسائله فى أمور الدين ، ويتفقه على يديه ، فما سنحت لتفكيره مسألة إلا شاوره فيها ، مستلهماً منه طريق الاستقامة والفلاح . وما بخل عليه الشيخ بشرح ولا ضن بجواب ، متوخياً أن ينزل قوله من نفس الصبى منزلة الفهم والاقتناع .

على هذا النحو جاء ذلك السؤال على لسان الصبى فى وقفة مع الشيخ :

بنى الإسلام على خمس ، فأيها أفضل عند الله وأمثل ؟

فهمهم الشيخ « خير الله » ، وهو يسبل جفنيه :

كلها عند الله سواء .

ـ أليست الصلاة أحق بالاتباع ؟

ـ الصلاة يا بنى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولكن لا تنس الزكاة ، فهى للفرد تطهير وللمجموع مؤنة ومعونة وإسعاد . . . طوبى لمن أدى الزكاة . . . جنة الخلد مأواه .

فتبرق عين الصبي قائلا فى تشوق وحماس :

وما الجنة ؟

ويجيب الشيخ « خير الله » متخشع الصوت :

هى الدار الآمنة التى لا شقاء فيها ولا نصب .

ـ أقصر كبير هى ؟

ـ بل قصور فياحة ، تجرى من تحتها الأنهار ، فيها من ألوان النعيم ، وأسباب المتاع ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ـ ولمن هى ؟

ـ لمن عمل صالحاً ، وآتى المال على حبه ، مسكيناً ، ويتيماً ، وأسيراً .

وينصرف الصبي من حضرة الشيخ ، منتشى النفس ، مشبوب الفؤاد ، تلوح له الجنة بما حوت من أطايب النعم ،

وكأنها من خياله الساذج ، مدينة متراحبة الجنبات ، تزخر بأبنية وقباب ، أحجارها من زمرد ، وأبوابها من ذهب ، تشقها أنهار ترفرف على حفافها الشجر محملة بيانع الثمر ، وعلى صفحة مائها المواج تتهادى زوارق مختلفة الشكول ، يمرح فيها أطفال كأنهم اللآلئ ، وينبعث منها شدو راقص طروب ، فما يعكر صفو راكبيها رنين كأجراس الدرس ، ولا مسطرة زاجرة ، ولا نظام صارم وقيود .

فلا يملك الصبي المفتون بأخيلة الجنة إلا أن يعجل إلى خدينه يناجيه بذات نفسه ، وهو يقول له :

ما أجمل الجنة ، وما أطيب العيش فيها . . . فى مكنتك أن تنالها . . . صدقة طيبة ، كفيلة بأن تفسح لك فيها أكرم مكان . . . المأفون هو الذى لا يتخذ سبيله إلى الظفر بهذا المتاع المقيم ، مهما كلفه ذلك من سعى وجهد وحيلة .

وشغف الصبي بهذا الحديث ، فما لقى خدينه يطارحه الكلام ، إلا كان للجنة فى تحاورهما حظ كبير .

وفى يوم الاثنين من أحد الأسابيع ، جأر الشيخ « خيرالله » بجابيه أن يجمع الصدقة ، فتسارعت الأيدى تمطر السفط المهندم بقروش هينات ، إلا الصبي ، فكانت عطيته فى هذا اليوم

قطعة فضية قشيبة السبك ، رفيعة القدر .

وتجلت القطعة الفضية بين القروش المطموسة الكابية ، تلتمع كأنها قمر ساطع ، يزهو بنفسه ، ويتطاول بلألائه على كاسفات النجوم .

واهتز الصديق الرائد ، يبادل صاحبه نظرات عجب وفخار ، فما أسرع أن أزاغ الصبي بصره ، يتشاغل عنه ، وأطرق يعبث بصفحات كتابه ، محتقن الوجه .

لم يكد المنديل المخطط العريض يستقبل جباية اليوم ، حتى انثنى الرائد على أذن «الشيخ» يهمس إليه ، وهو يومئ طوراً إلى قطعة النقود الرفيعة القدر ، وطوراً إلى الصبي الذى ما زال منكبًّا على كتابه يعبث به ، مستطار الوجدان .

وما هى إلا أن سمع اسمه ينادى ، فأسرع واقفاً يلبي النداء ، ناكس الرأس ، يتلاعب بحاشية كتابه ، وقد تخايلت على محياه علائم استحياء .

وصدع الشيخ « خير الله » يقول :

ارفع رأسك يا بنى ، فما الساعة ساعة خجل وتهيب . . . من كانت أريحيته هذه ، استحق موفور الثناء .

وبلغ الحماس بالشيخ كل مبلغ ، فارتجل خطبة رنانة

طنانة ، يطرى فيها صنيع ذلك الأريحى المفضال ، حاثًّا أقرانه أن يحذوا حذوه ، ويرتسموا خطاه .

واختتم الخطبة ، وهو يهتف من أعماق قلبه داعياً له بالتوفيق وحسن الجزاء .

وانتهت الحصة ، وتفرق التلاميذ فى فناء المدرسة يلعبون ، وانبعث الخدين يتفقد صديقه ، فظفر به فى ركن قصى . ولم يكن مرحاً كعادته ، فهو عاقد الجبين ، ضارب يديه فى جيب سرواله ، مطأطئ الرأس ، يركل الحصيات فى حدة ، وقد استبد به تفكير دفين .

فأقبل عليه الخدين يزحمه بالتهنئة ، ويمتدح ما أعطى ، مبتهج الأسارير .

فغمغم الصبى يقول وهو على حاله :

اتركنى وشأنى . . . أنا لا أستحق كل هذا التمجيد .

— بل تستحق كل التمجيد .

وأطرق الصبى هنيهة ثم انبعث فجأة يقول :

أفى مستطاعك أن تسأل شيخنا عن السرقة ، إذا اقترفها الولد من مال أبيه ؟

فعجب الخدين لهذا السؤال المفاجئ ، وأدرك أن فى

الأمر خبيئاً ، فجمجم يقول :

لا تكتم عني ما في نفسك.. وأنا أستفتي لك شيخنا كما تريد .

ومرت فترة صمت ثقيلة ، قطعها الصبي بقوله :

لا تدهش . . . لقد سرقت اليوم . . . تم ذلك وأنا في حجرة أبي على مألوف عادتي كل صباح ، أفتح كيس النقود لآخذ منه مصروف يومي المقدر . . . فما إن تثاءب الكيس بين يدي ، يحفل بما احتوى من قطع فضية لوامع حتى هتف في أذني هاتف كأنه صوت الشيخ « خير الله » يهيب بي أن يكون مني لصدقة يوم الاثنين نصيب موفور . . .

تهيبت بادئ الأمر ، بيد أن همسات الصوت اشتدت وطأتها عليّ ، وألفيت يدي تنجذب إلى النقود تختطف قطعة فضية رفيعة القدر. . . وهاجمني في ذلك الحين صوت أبي : ماذا الذي أبطأ بك . . . ؟ أضللت مخبأ النقود ؟ . . . الكيس أمامك بجوار المرآة ... فبادرت بإخفاء ما أخذت من النقود في جيبي ،ورددت الكيس مكانه،وانصرفت عن الحجرة في تلصص ومحاذرة ، أستجدي طمأنينة البال من أنفاس النسيم .

وأمسك الصبي عن الكلام ، يجفف ما تفصد على جبينه من عرق ، ثم جمجم :

أسارق أنا . . . ؟ !

وكست الكآبة وجهه ، ، وخنقه النشيج .

ومال عليه الخدين يربت كتفه ، ويهدئ من روعه :

لا تبتئس . . . ما أخذت لنفسك . . . لقد ابتغيت وجه الخير . . . أنت حسن النية . . .

فقال الصبي فى صوت خافض :

ما بالى لا أتصدق بمصروف يومى ؟ لقد أثمت فيما فعلت . لن ينال الجنة سالب أثيم . . .

لم يمهل الناقوس الصديقين ، فقطع رنينه المشئوم عليهما الحديث ، وهو يلم شتات التلاميذ ، فهرع الصديقان إلى الصف ، ينتظمان فيه .

واستقبل الصبي حصة الحساب ، وهو فى قلقه ، يعانى حساب الضمير ، فما أتقن الفهم لمسألة تعرض ، ولا أحسن الإصغاء لحل يشرح ، بل غاب فى تفكير محتدم ، يستشعر الضيق ، وكأنه يسير فى طريق افترشته الأشواك ، تدمى قدميه .

وما افظ اليوم أنفاس الأصيل ، حتى انتشرت التلاميذ فى الشارع العريض ، جماعات فى ضجيج ودوى . وتحلق نفر منهم حول عربة البائع هرم ، حافلة بألوان الحلوى ، فأقبلوا

عليها يتخيرون منها وينتقون ، لا يفتر مطلب لهم ، ولا ينضب سؤال ، والبائع الهرم مقسم بينهم كالنحلة الدؤوب ، تستجيب للطلبات فى طواعية واستبشار .

وجذب الخدين صديقه يهمس إليه :

علينا بمؤنتنا اليومية من الحلوى قبل أن يستنزفها الجمع .

ووقف الصديقان حيال العربة ، تتطاول أنظارهما إلى ما حوت من لطائف ، ينتظران دورهما فى زحمة الرفاق .

لم يكن الشارع العريض ينفرد بتلك العربة وما حوت ، بل هو زاخر بأشتات الحوانيت ، وأصناف الناس من وافدين وقاطنين .

ومن قصاد الشارع كومة بشرية ، هى امرأة ضريرة ، مجللة بالسواد ، تأخذها العين عن كثب من جدار المدرسة تتفيأ ظله ، فى أسمال بالية ، ترتل آى الذكر الحكيم ، فى صوت راتب حزين ، كلما تغنت بالآيات المحكمات هزت رأسها ، متمايلة به ذات اليمين وذات الشمال ، وتطاولت به طوراً وتقاصرت كأنها تطلق عينيها المطموستين ، سهاماً نفاذة ، تتصيد بها سواطع الأضواء .

على ركبتيها طفلان فى مزق مهلهلة ، وقد أمسك كل منهما بكسرة ، يعف عليهما ذباب .

وتنقطع المرأة عن التلاوة فى الفينة بعد الفينة ، تسكت المتباكى ، وترد عنه جور أخيه الذى شغب عليه .

وراع الصبى صنف جديد من الحلوى مثل اه يتلألأ فى لفافة فضية لامعة ، فتحمس يسأل عن ثمنها ، ولما أجيب عن سؤاله ، أخذ يحصى ما فى جيبه من قروش ، وتلفت يتفقد صديقه ، فوقع بصره على تلك المزقة البشرية وطفليها المحرومين ، وقرع سمعه صوتها يتلو قوله تعالى :

«هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان»؟

فوقف الصبى بين المرأة والحلوى ، مقسم النظرات ، وابث فى موقفه لا يحسن من أمره إلا التحير والتردد والإحجام .

وسرعان ما اندفع الصبى نحو الكومة البشرية ، يستودع يدها مصروف يومه ، وانطلق يعدو على الطريق ، فى خفة ويسر ، كأنه ملك مجنح ، يصعد إلى سماء الخالدين من بررة وأخيار .

وأفاق الحدين من ذكرياته التى تتراءى فيها طفولة صديقه فقيد اليوم ليجد قدميه تسوقانه إلى مدينة الصمت والظلام ، حتى مثل على قبر صديقه يقرأ الفاتحة ، وقد انبثق لعينيه من غيابات القبر نور وهاج :

سيكس أبيل

مثل الفتى نجاتى فى حجرة مخدعه ، قبالة صوان الثياب . بعد أن فتح مصراعه ، يتخير منه حلة تأهباً للرحيل .

وأقبل على المرآة الكبيرة التى تبدت له ، يعقد رباط الرقبة ، ويحكم وثاقه حول عنقه المكتنز ، ولم يكن قد ارتدى سرواله بعد ، وما برحت قدماه العاريتان ، تترنحان فى خف منزلى أدكن قد تأكلت زواياه .

وأطال الفتى من وقفته يتملى رباط الرقبة ويعنى به ، حتى ضبط عقدته ، وأحلها من البنيقة ، وسطها المختار .

ولما فرغ منه ، اجتذب سرواله ، وهم يدخل فيه ، وما إن رفع ساقه يكمل زينته ، حتى جمد يتوسم طيفه ، والدهشة آخذة به ، والتعجب يغشى ناظريه ، كأن لقاء اليوم الذى تم بينه وبين صنوه على صعيد البلور الشفيف ، هو أول عهده به .

عجباً ! أيكون هو هذا الخلق الشائه : أنف أفطس التحم بوجنتيه ، وعينان غائرتان تضايقت حدقتاهما ، وتثلم جفناهما ،

فتناثرت الأهداب فى منابتها، مصوحة كأنها أعواد الهشيم، يظلها حاجبان متورمان ، ينفر منهما شعر غزير .

أما الساقان فمنفرجتان فى انبعاج ، انتفش عليهما الشعر كثًّا كثيفاً ، وأما القامة فمتقاصرة فى تكتل ، وقد تدلت منها ، حتى لامست ركبتيه ، ذراعان مغرقتان فى الطول ، أثقلتا كاهليه ، فانعطف رأسه ، وانحنت هامته ، وتأود ظهره ، فكأنما هو القوس، يسعى بعضه إلى بعض ، من طرفيه .

عجباً ! أيكون هو قرداً آدميًّا ، افظته الأحراج متنكرة له ، فغدا فى خضم الحياة ، طرفة تثير بغرابتها التعجب والفضول ، أم هو فضلة من حطام بشرى ، غفل عنه القدر ، حين كان فى الأحشاء جنيناً يتخلق ؟ فما اوى القدر ظهره ، يتشاغل عنه حتى غشى الأحشاء اضطراب ، وكأن الماء الذى يحتويه ، ويدفع فيه الحياة ، بحر مائج غضوب حفل بالمكاره والأخطار ، وسرعان ما هبت عاصفة نكباء ، تسوى منه فى استخفاف ؛ ذلك المسخ الآدمى ، آبية أن يرتفع صرح بنائه ، على توافق وتآلف وانسجام .

ولما أقبل القدر ، يتفقده ليعاود رعايته ، كان البناء قد تم تشييداً ، يسود خلقه تنافر وتشاتم وخصام .

وانسرح الفتى يقلب فى المرآة ناظريه ، فى تكره واستنكار ، وعلى محياه مسحة من كآبة وشحوب .

لا مرية عنده أن الذى شاهده هو هفوة من هفوات البصر ، خدعته ، كما يخدع السراب النظر وهو يتألق على بسيط الرمال ، تألقه المواج ، تحسبه العين ، على البعد ، ضوء الماء الألاق ، وقد نالت منه أشعة الشمس ، تلفح صفحته ، فى رحاب الفضاء العسجدى .

أيغدر به هذا الأعجم المارق الغرير ؟

أليس جزاء الغدر إلا الغدر والتنكيل ؟

أحجى به ، أن يجدع أنفه ، ويشج هامته ، ويسمل عينيه ، ليهشمه جملة ، يريح النفس من عناء وجهه الأغبر الكؤود ، ايجعل منه أحدوثة تتنادر بها الأفواه ، وأثراً تعفوه الرياح ، وتنعق فى خرائبه البوم .

وهم نجاتى ، ينفذ ما انتوى ، حين تراقى إلى سمعه صليل الجرس يعوى فى أذنيه عواءه الموصول ، فأرتج عليه ، وحارت به قدماه ، وما برح سرواله متشعثاً على خاصرتيه .

واستبد وجيب الجرس ، وكأنه سوط يلهب أعصابه بفرقعته ، فهرول صوب الباب يزمجر ويجمجم ، تتشاغل يسراه

بنطاقه الجلدى ، يلفه حول كرشه فى تعثر ، على حين تلاعبت يمناه بمزلاج الباب ترفعه ، ووجهه مختنق من غيظ .

وتثاءب الباب .

وبدا له ، من فرجته وجه مطهم مشرب بحمرة ، وقامة فارعة ، يكسوها لحم شحيم ، فتبين على الفور ، صديقه « عبد الباسط » ، زميل الدرس ، ورفيق العمر .

و « عبد الباسط » هذا فتى فى شرخ الشباب ، اتسم بالكياسة والظرف ، ضاحك الأسارير ، لا تفارق البسمة شفتيه ، مشغلته الكبرى فى الدنيا ، وليمة فاخرة تحفل بصحاف الطعام الشهى ، وتفخر بخمر معتقة تتلألأ فى أكوابها الشفافة ، تفغم الأنوف بشذى رحيقها الفواح ، وكأنه عبق الورود النضرات تحملها ، عند الأصيل ، أنفاس النسيم ، إبان الربيع .

ومتعته مجلس أنيس ، يطيب له المقام فيه ، يطارح رفاقه المعابثات والأضاحيك ، ولا يلبث أن يتصدر الجمع ، يؤنسهم بألوان من المفاكهة والمزاح ، لا يمل ولا يكل ، وهو يرددها على مد الساعات ، فى تهلل وتهريج وتصفيق .

وظل الفتى نجاتى ، قابضاً على مصراع الباب ، لا يفسح منه إلا فرجة ضيقة ، يملك بها على صديقه الطريق .

وانحنى « عبد الباسط » يحييه تحية الإصباح الندى ، والابتسامة الخالدة ترف على شفتيه ، فلم يباداه الفتى نجاتى التحية ، وما زال يحدجه ، دون أن ينبس .

وعجب « عبد الباسط » لهذا اللقاء الجاف الذى استقبل به ، واستجمع يدفع الباب بمنكبيه ، فتراحبت فرجته ، تهدى إليه الطريق ، على حين تقهقر نجاتى متعثرة به خطاه ، وقد صك الباب جبهته ، فترنح يرتطم بالجدار ، وتساند على الحائط يحمى نفسه بكلتا يديه ، من سقطة محققة ، فانزلق سرواله متجمعاً على الأرض ، يقيد قدميه .

واقتحم « عبد الباسط » الشقة يزمجر ، محتد النبرة :

حقـًا إنك تفتقر إلى كياسة وأدب . . . أحييك فلا تجيب.

وانكفأ نجاتى يرفع سرواله إلى خصره ، وهو يغلى غليان المرجل ، ومن ثم دلف إلى حجرة مخدعه مغمغماً لا يبين ، وفى أعقابه « عبد الباسط » يضرب الأرض بقدميه ، ويلوح بيده ولسانه كالمذياع الثرثار ، لا ينقطع عن الإنشاد يردد :

حين تقف على السر الذى جشمنى السعى إليك فى مثل هذه الساعة الباكرة ، ستجثو ، حتماً ، عند قدمى نادماً تقدم العذر ، وتطلب الصفح .

واستدار الفتى نجاتى يواليه ظهره ، وتشاغل بسترته يرتديها ، وهو يلقى كلامه فى استخفاف :

سرك أعرفه .

وبهت « عبد الباسط » يهمهم :

ماذا تعنى ؟

— إفلاس جيبك هو الذى ساقك إلىّ ولا ريب . . . أوتحسبنى غبيًّا ، لا أفهمك ؟

وانفجر « عبد الباسط » يغرب فى ضحك ، وأجاب فى غير مهل :

طاش فألك وخاب ظنك . . . من الذى فى حاجة إلى مالك . . . الدنانير ملء جيبى تتجاوز العد ؟

وضرب يده فى جيب سرواله ، يتلاعب بالنقود الفضية . ارنينها فى محبسها ، صوت مكبوت .

وجابه نجاتى صديقه يقول :

إذن ما الذى دفعك إلى هنا . . . إن لم يكن ضيق ذات اليد؟

وغمز « عبد الباسط » بعينه يستطرد :

آه يا عزيزى الصديق او علمت .

— كفى . . . أنا است فى وضع يسمح لى بالهذر . . .

أمامى يوم حافل طويل . . . أوجز القول . . . ماذا تبغى ؟

ــ عندى لك مفاجأة . . . مفاجأة عظيمة .

وأسكته الفتى نجاتى بإشارة من يده ، وأنشد يقول :

من أين لى بها ؟ . . . أنا لا أتوقع الترقية بعد .

ــ أوَهذه مفاجأة تستحق منى الاهتمام . . . تفهم . . . لا تكن غبيًّا . . . أكرر عليك : إنها لمفاجأة كبيرة . . . عظيمة . . . مفاجأة الموسم ولا ريب . . . أوعيت ؟

وحملق الفتى نجاتى فى صديقه ، وقد اشتد به التطلع ، فنطق وشيكاً يقول :

هات حديثك . . . خلصنى . . . إنى مصغ إليك .

واشرأب « عبد الباسط » يطلق قواه فى لهجة ماكرة :

أحقًّا أنت تريد أن تسمع لى ؟

فزمجر الفتى نجاتى فاقد الحلم :

يا لك من مأفون . . . قليل العقل . . . أوَلست أحثك منذ قدمت أن تطلق ما عندك من حديث ؟

ــ مهلا يا صديقى . . . لا تكن عجولا نافد الصبر .

وأخرج من جيبه لفافة تبغ أشعلها على مهل ، وجابهه الفتى نجاتى مجنح الساعدين ، ينظر إليه شزراً ويغمغم :

خلصني يا أخي . . . لم أعد قادراً على صبر .

واستعلى « عبد الباسط » يقول وهو ينفث دخان لفافته :

هامت بك نساء الأرض . . . يا دون جوان العصر . . . إنهن صرعى هواك . . . يتردين فى شباك حبك . . . ويا له من صيد سمين !

فهمهم فى سهوم :

النساء . . . يتردين فى شباك حبي . . . صرعى هواى !

وانقضت فترة صمت ، واستدار نجاتى يقول خشن اللهجة :

النساء ؟ . . . ما لى وما لهن ؟

— بل لك معهن أمر وأى أمر . . . الغانية إنصاف تهواك . . . تحمل لك بين جنبيها هوى مشبوباً .

وهز نجاتى رأسه ، رافعاً حاجبيه ، وطفق يذرع الحجرة جيئة وذهاباً ، حائر الخطو ، وقد أظلت جبينه سحابة من تفكير .

واسترسل «عبد الباسط» يقول فى تباطؤ ، وهو ينسق عباراته :

سمعت منها ما هزنى . . . حقاً إنها هائمة بك ... فمنذ أن اكتحلت عيناها بصورتك لم تعرف للنوم طعماً ولا للراحة من مذاق . . . إنها تفضل الموت على فقدك . . . فما قيمة الحياة وهى خاوية منك . . . ؟ إنها ، بحسب زعمها ، العواصف

والرعود . . . اليأس والقنوط . . . الجوع والحرمان . . . الجحيم
والنار . . . الضياع والفناء . . . أما فى كنفك ، فهى ابتسامة
الصباح الندى . . . هى الحدائق الحالية . . . هى المروج
المخضوضرة ... هى الأنس ... دى السلام . . . هى الخلود .

وانقطع « عبد الباسط » عن الإنشاد ، وسما بعينيه ، يرقب
صديقه ، ويتبين أثر الكلام فيه .

والتفت الفتى نجاتى محملقاً يسائله :

من تكون « إنصاف » هذه . . . ؟ أنا لا أعرفها .

— ومن الذى يجهل « إنصاف » . . . إنك تضحكنى . . .
« إنصاف » النجمة اللامعة . . . صاحبة الصيت العريض . . .
إنها عميدة الراقصات فى ملهى « الأضواء الحمر » .

وانبرى « عبد الباسط » يطرى اصديقه ، ما طبعت عليه
الغانية من وسامة وجمال ، منمقاً فى القول ، مغرقاً فى الوصف .

وأسرع الفتى نجاتى يستخبر :

هل التقيت بها من قبل ؟

— فى الحفل التنكرى الذى شهدته أنت معنا عند صديقنا
« عبد الباقى » منذ أسبوعين . . . إنه الحب . . . الحب العنيف
المتمكن . . . الحب الذى يصيب الفؤاد من أول نظرة . . .

لقد نفذ السهم المريش إلى قلبها وتمكن منه . . . إن الثقب الذى أحدثه عميق . . . عميق . . . عميق .

وما أتم حديثه ، حتى جلجل جرس الشقة فى رنين أرعن... فتطاول الصديق بهامته يهمس :

أوَتكون هى . . . ؟ هاجها الوجد ، فمشت إليك ؟

وتحير الفتى نجاتى ، يدق الأرض كأن عقرباً لبسته ، وقال مبهور الأنفاس ، وهو يلوح لصديقه بظهر يده يحثه :

اذهب . . . اذهب تبين الطارق من يكون !

وزايل الصديق حجرة المخدع ، وداف إلى الردهة متوخياً باب الشقة الخارجى ، والفتى نجاتى من خلفه ، يتقفى أثره ، يرقب الباب ، لا يهدأ ولا يستقر ، وقد عمد إلى هندامه يصلح ما يكون قد تشعث منه ، وأنحى على شاربه يفتله .

وما إن صر الباب ينفتح ، حتى مرق منه صديقهما «عبد الباقى» صاحب الحفل التنكرى ، يقتحم الشقة كثور هائج ، استحثوه إلى حلبة المصارعة ، فانبعث إلى رحابها من محبسه الدامس يجول فى شرود وجموح ، يعشى النور عينيه ، فيقشعر بدنه ، ويتشمم الريح بخيشومه البليل ، يرتصد لمنازله ، ويمزق الهواء بقرنيه كأنه يشحذ منهما النصل ، ليقويا على الطعان .

وتراءى له «نجاتى» يحتل من الردهة الصدارة ، كأنما هو مصارع الثيران الجسور ، ثبت فى مكانه يلوح لخصيمه بشملته الأرجوانية المقصبة ، فيزيده من هياج وحماس ، وما لبث « عبد الباقى » أن ركض ينقض عليه ، لقدميه على الأرض دبيب مسموع ، وفى نبرته تهلل ، ولسانه يردد :

أين هو... اتركوه لى... اتركوه لىأزف إليه النبأ العظيم !

وسرعان ما هجم عليه ، وأمسك به من كتفيه ، ومثل يتأمله . . . تبرق عيناه بريق الإعجاب والتعظيم ، ومن ثم ضمه إلى صدره ، وأقبل على وجنتيه يزحمهما فى تقبيل ثقيل ، يتغنى بقوله :

أهنيك ... أهنيك ... يا دون جوان العصر ... لقد نلت الدرة الفريدة ... «إنصاف» ... أميرة المسارح ، وملكة الفن .

وانفتل « عبد الباسط » من مكانه خلف مصراع الباب ، يظاهر صديقه ، مؤكداً بالإشارة ما تفوه به ، دون أن يسمع له صوت .

والمعروف عن « عبد الباقى » أنه فتى متزن الطبع ، دمث الخلق ، وفى لصداقته وفاء الظل ، إلا أنه ينفر فى الحين بعد الحين ، من ركود التحفظ ، فيخرج عن تزمته المألوف

يستطيب المداعبة والعبث ، وإن كان هدف الدعابة الأصيل ، خلا من خلانه الأصفياء ، يكن له الإعزاز والإجلال .

وارتعش صوت الفتى نجاتى بقوله :

أأفضت إليك أنت الآخر بسرها المكنون ؟

فسعل « عبد الباقى » يقول :

وما وجه الغرابة فى ذلك . . . ؟ لمن إذن تريد أن تبوح بغرامها ، إن لم يكن لصديق مشترك يمكنه بمسعاه الحميد الجمع بين محبين ، والتوفيق بين قلبين .

وسكت ، يجفف ما تفصد على جبينه من عرق ، ثم تابع :

تود « إنصاف » أن تلقاك الليلة .

وخرج نجاتى عن صمته ، يهمهم فى دهشة :

الليلة . . . الليلة . . . تلقانى أنا . . . تجتمع بى ؟

— إنها على انتظار . . . تتحين الأنباء . . . بماذا تريدنى أن أجيب ؟

وسرعان ما رفع سماعة الهاتف ، وتشاغل بقرصه يديره ، دون أن يفسح لصديقه مجال تفكير وتدبير ، وانبعث من الهاتف صوت منغم يقول :

آلو . . . من ؟

ـــ أنا « عبد الباقى » . . . إنصاف ؟ . . . صباح الخير . . . أخبارى ؟ . . . ابن . . . نجاتى ؟ . . . يسعده لقاؤك . . . عليك تحديد المكان والزمان . . . ماذا . . . ؟ أنت تواقة لسماع صوته والتحدث إليه ؟ . . . الآن . . . ؟ تقولين لا صبر لك . . . عظيم . . . أمهلينى حتى أنهى إليه الخبر .

ولوح «عبد الباقى» اصديقه بعينه فلم يظفر منه إلا بإيماءات التمنع والاعتذار ، وقد لاحت على مخايله علامات التهيب والإحجام .

ونحى « عبد الباقى » السماعة جانباً ، وهمس يقول :

لا تكن هكذا فظ القلب ، غليظ الطباع . . . ترأف بها . . . هيا . تحدث إليها .

وأمعن الفتى نجاتى فى تمنعه ، وهو يقرض أظفاره ، متوفز الإحساس ، فما كان من «عبد الباقى» إلا أن أسلم إليه السماعة ، يقول فى خفوت :

خذ . . . الأمر يعنيك وحدك . . . الفرصة فرصتك . . . أنت وشأنك .

وأذعن الفتى نجاتى إلى الأمر ، وجرى عبر الأثير حديث أنيس أنهاه الفتى بتلك العبارات :

أمرك . . . الليلة . . . فى الثامنة . . . بملهى الأضواء الحمر . . . لا . . . ان أتأخر . . . إلى اللقاء .

وأخيراً أهوى الفتى «نجاتى» بالسماعة إلى موضعها فى رفق ، وتقاطرت فى رأسه الأفكار ، فهام فى بيداء الأخيلة والظنون .

أهذر ذلك الذى يعيش فيه أم حقيقة دامغة لا يداخلها شك أو تغرير ؟

وابتسم الأصدقاء الثلاثة يفترقون على لقاء .

وحين وقف « عبد الباقى » يودعه ، انفرد به ، يربت ظهره ، قائلا :

هنيئاً لك صيدك المرىء .

وفى الموعد المتفق عليه ، طرق نجاتى الملهى ، يسعى بين صديقيه ، يحجل فى خطوه كقرد من تلك القردة الدربة ، استقدمه مروضه ، هاهنا ، ليعرض أفانينه المثيرة ، ويشيع بين النظارة الأنس والابتهاج .

واعترضهم مضيف من غلمان الملهى ، فتصدى له « عبد الباقى » يطلب الغانية « إنصاف » عميدة الراقصات ، فهداهم برأسه الطريق ، ثم تنحى عنهم منصرفاً إلى بعض الشئون ، يوليها العناية والاهتمام ، فالملهى لم تنتظم حركته ، ولم

يعمره السمار بعد ، فخلا من رواده إلا بعضاً منهم ، تناثروا فى أرجائه ، على الموائد ، يشربون ويسمرون .

ومضى ثلاثتهم إلى ركن قصى ، فطالعتهم «إنصاف» على حشية وثيرة ، ينفح منها عطر نفاذ ، وتتألق فى ثوب رفيف يلتمع فيه نثار براق ، شق عند النحر ، يكشف عن صدر مرمرى ، يثير فى النفس بنهديه المشرئبين ، كوامن النزعات والأحاسيس .

وزم « عبد الباقى » قدميه ، وانحنى فى إجلال ، يأخذ يدها الخصبة ، يودعها قبلة التحية والاحترام ، وتبعه « عبد الباسط » فلامست شفتاه كفها العبلة ، ثم صلب عوده يقول ، وفى عباراته رنة زهو وانتصار :

لقد أحضرنا الوديعة إنفاذاً للأمر . . . ها هى . . . !

واستدار يسحب الفتى نجاتى ، يقدمه .

ورفعت «إنصاف» حاجبيها ، وسمت إلى «نجاتى» تكسر اه عينها ، فى إثارة ودلال ، فطارحها النظر فى نخشية وتردد ، وقد تخشب فى وقفة صلبة كأنه دمية من تلك الدمى النحاسية ، يلهو بها فى فراغهم الأطفال .

وشق صوتها الصمت ، يقول :

ألا ترغب فى الجلوس ؟

واستجاب لها يأخذ له مجلساً ، كأنما هو آلة تحرك بلولب ، وتنحنح الصديقان ، يطلبان الإذن فى الانصراف ، فهزت الغانية رأسها علامة الرضى والإقرار ، فصدرا إلى مائدة عن كثب ، يتخذانها مرقبة ، يتابعان منها فى مساترة وتلصص ، فصول «الغرامية» التى تجرى أحداثها منهما ، على بضع خطوات.

وتدانت الغانية من الفتى « نجاتى » تلاطف كتفه مشبوبة الوجدان ، وما ابثت أن طوقته بذراعها ، وأنفاسها تتلاحق على وجنتيه ، تقول :

دعنى أتحسسك . . . أشعر بك . . . أشعر بالنار التى أججت منى المشاعر ، وألهبت فى قلبى ضرام الحب . . . دعنا نحتفل بهذا اللقاء . . . دعنا نشرب نخب حبنا .

وارتدت عنه تصفق .

وأقبل مضيف المشرب .

وتفوهت آمرة :

شامبانيا . . . أفخر ما عندك .

وغرب المضيف يذعن للأمر ، ناشطة خطاه .

وعدلت «أنصاف» بوجهها إلى الفتى «نجاتى» تحدق إليه ؛ ثم هوت على أذنه بفمها ، تماجنه وتناوشه فى غير احتشام ،

فتزيده من هيجة وضرام .

وما كرع الكأس الأولى ، حتى هبط على ذراعها يلتهمه في تقبيل مسعور ، ويهمهم في هوس :


أحبك يا « إنصاف » . . . أعبدك يا « إنصاف » . . . أنا خادمك يا « إنصاف » . . . عبد من عبيدك . . . ملك يديك يا « إنصاف » .

وبغتة اضطربت الذراع ، كأنها زلزال ، فارتجت أوصاله ، واصطكت أسنانه ، وأحس بدوار يعبث برأسه وتناهى إلى سمعه صوت الغانية ، ينفجر في زمزمة مخيفة ، يقول :

إن لم تنصرف من فورك ، حطمت رأسك ، وسويت أنفك بوجنتيك . . . إنه لى . . . لن يمتلكه غيرى . . . لن أفرط فيه لأحد . . . أتعين أيتها القطة المنهومة ؟

وأرتج على الفتى ، وتطلع في تشوف يتكشف ، فألفى عن كثب منه ، حورية من غوانى الملهى ، صارخة الزينة ، فاحشة الجمال ، ترنو إليه وفي عينيها افتتان وإعجاب .

وتشابكت نظراتهما هنيهة ، ومالت غانية الملهى تقول غمازة بالحاجب :


على رسوفى

أنا صفاء .

ونهض الفتى يزجى لها التحية ، فى زحمة من حفاوة وترحاب ، فعلقت به « إنصاف » تلزمه مقعده ، على حين انطلقت بعينيها إلى تلك المجترئة الجسور ، ترميها بنظرة شزراء .

وأطلقت « صفاء » ضحكة عابثة فى غير مبالاة ، ومن ثم أقبلت على الفتى تميس بخصرها ، وتصعد فيه نظراتها تقول وهى تمط الكلمات فى دلال :

زين الشباب ولا شك . . . رجل ولا كل الرجال .

وحدجتها عميدة الراقصات بنظرة جامدة ، تقول فى صوت جهير ، تتجلى فيه الإمرة والسيطرة :

اغربى من هنا أيتها الحدأة الخطافة .

فهمهمت صفاء فى استعلاء وتحد ، وهى تغازل الفتى :

ألست أكمل جمالا من تلك العقاب الهرمة ؟ . . . انظر إلى . . . تفرج .

وطفقت تدور ولا تفتأ تدور ، عارضة عليه مفاتن جسدها اللولبى فى خلاعة وابتذال ، ثم عمدت إلى ثوبها ترفع حواشيه ، فتبدى له ساقان مفتولتان فى انسياب ونعومة ، هما فى جوربهما المفهاف آية جمال وإبداع ، فغزا الفتى نجاتى تلك المناطق

الخطرة ، بعين شرهة ، وحس متلهب ، وقلب هيمان ، ولم يعد قادراً أن يصرف عنها ناظريه .

ورنت من « صفاء » ضحكة مديدة ، فيها طراوة وتميع ، وهمست تقول وهى تبرز مفاتنها فى خيلاء :

كل ذلك ملك لك . . . طوع بنانك . . . أنتظر الإشارة لأقدمه على مذبح الحب هبة خالصة لك .

وانتصبت « إنصاف » تصيح غضوب الصوت ، متنمرة النظرات :

قسماً بالله . . . إن لم تغربى . . . لأخمشن وجهك ... وأشقن رمسك . . .

ولم يفلح مع « صفاء » تهديد أو وعيد ، ولم تظفر « إنصاف » منها بغير الزراية والإهمال ، وأقبلت على الفتى غير هيابة ، تداعب خصلة من الشعر نفرت على جبينه ، وما عتمت أن امتدت إليه تدغدغه وتناغيه مجانبة الحشمة والتحفظ ، فانثنى يتضاحك فى استسلام ومراح .

وسرعان ما نشبت بين الغانيتين معركة حامية الوطيس ، تستهدف الحفاظ على الفتى والاستئثار به ، هذه تجذبه وتلك تلقفه ، وهو بينهما كرة حائرة يتناقلها اللاعبان فى جسارة

وحماس ، دون مسالمة أو فتور .

وبينما الكرة حائرة تضطرب ، بين مد وجزر[1]، إذا بها تشعر بسواعد حداد تخاطفتها نائية بها عن ساحة المعركة ، وتصيدت أذناه همساً يوسوس له :

يا لك من محظوظ . . . نتقاتل فى سبيل غرامك غوانى الأرض . . . الحمد لله الذى أنجاك من ضرر وشيك .

ودفع الصديقان الفتى «نجاتى» يحثان الخطو ، فتقدمهما يغزو الطريق ، على حين أخرج « عبد الباقى » ورقة رفيعة القدر ، وطفق يلوح بها للغانيتين فى مساترة واستخفاء ، ويغمز لهما غمزات الإطراء والاستحسان .

وتعانقت الغانيتان ، يسودهما وئام وسلام .

وما إن احتوى الطريق الأصدقاء الثلاثة ، حتى نشط الفتى « نجاتى » يقول فى زهو وخيلاء :

لقد أشفقت على الفتاتين . . . ولكن ماذا أصنع لهما وهما يتنازعاننى ويتقاتلان فى سبيل الظفر بى ؟

وسنح على فم الصديقين ابتسام مريب وهما يسألانه ما سر التنازع فيه :

بالله أخبرنا . . . لا مرية أنك تنطوى على طلاسم تجعل منك آية من آيات الفتنة والإغراء ؟

فاشرأب الفتى ، يكسب قسماته إمارات التيه والفخار، ويقول :

ــ إنه السيكس أبيل . . . ألا تفطنان ؟ . . .

وأخذ يضرب كفًّا بكف ، وهو يردد فى تعجب :

يا للغفلة . . ويا للغباء !

فشهق الصديقان يقولان :

وما هو السيكس أبيل هذا الذى تتشدق به ؟ . . . بالله عليك زدنا معرفة أيها الدون جوان النحرير .

ــ إنها بتعبير آخر . . الجاذبية . . أسمعتما مثلا بجاذبية الأرض؟

ــ سمعنا . . ولكن يعوزنا الشرح والفهم .

ــ الجاذبية . . . هى . . . هى المغناطيس القوى . . يشد الكائنات إليه فى عنف فلا تملك إلا الانجذاب والانقياد . . . وإذن ، يا صديقىّ ، فأنا مثل الأرض أحتوى على ما لها من جاذبية فعالة ومغناطيس قوى . . وما النساء إلا الأجرام المتصاغرة التى تدور فى فلكى ، وتتهاوى صرعى بين يدى .

وتلاقت نظرات الصديقين ، على حين التفت الفتى «نجاتى» إلى الطريق يخطر عليه فى تيه ، وقد تملكته نشوة العزة والنصر ، وكأن الطريق الدامس الذى يمشى عليه انفرج عن إشراق ، يبدد وحشة الظلام ، فتبدى وكأنه يختنق بنساء الأرض قاطبة ،

يخرجن فى موكب حافل مهيب ، يحدقن به ، ويخطبن وده ، ويلتمسن رضاه ، رافعات الأكف فى ضراعة واسترحام .

وتقاصرت من الفتى خطاه ، وأخذ ينقل قدميه على محاذرة واحتراس ، يظن من يراه أنه يشق سبيله مجهداً ، يعانى من زحمة قاتلة ، تخنق بحرها الأنفاس .

وما إن احتوته حجرة مخدعه ، حتى مثل قبالة صوان الثياب ، بعد أن فتح مصراعه ، يفرج عن مرآته الحبيسة . ولما ظهرت له ، قاربها جياش الأحاسيس يقص عليها ما كان من مغامرة الليل ، فاشتبك والبلور فى مناجاة أنيسة ، غمرها ود وصفاء ، وإذا هو يتوسم صنوه وكأنه يتابع وجه الربيع فى موكب الأزاهير .

وأوغل النظر يغازل طيفه ، لا يقوى على فراق ، فإذا المرآة تتحفه بمزيد من طلاقة وإشراق ؛

وطالت بالفتى وقفته ، حتى شعر بالنعاس يرنق فى عينيه ، والخدر يسري فى أوصاله ، فمال على سريره ، يحتويه سبات عميق ، ترفرف على أساريره . . . أسارير القرد الآدمى مباهج الأحلام ، وكان صوته ، فى الحين بعد الحين ، ينطلق غليظاً ناعساً ، يخلط بقوله :

يا نساء الأرض . . . صبراً . . . مهلا . . . ستنال كل منكن لمسة من يدى . . . وخلجة من فؤادى . . . وقبلة من فمى . . . أنا لكن . . . لن أبخل بنفسى عليكن !

نداء

شغف الأستاذ « عنتر المحلاوى » منذ فجر حياته بنزعة آثرها على غيرها من دوافع ورغاب ، ما فتئت على الرغم من اشتداد عوده ، وتكامل نمائه ، تعنف به وتلح عليه فى مثابرة وإصرار كأنما هى من نفسه شعلة دائمة التجدد موصولة الاشتعال.

لقد شب صاحبنا طلاعاً إلى الأسفار ، وإن لم يكن قدر له بعد ، أن يغترب عن موطنه الأصيل مسيرة يوم أو بعض يوم ، فهو ما زال يمنى النفس كسابق عهده دون أن يحقق فى الأسفار شيئاً من آماله الرحاب .

إنك إن تفقدت باطن وجدانه استبطنت ذلك الشعور الفوار ، وليد ما غرسه الأستاذ « عبد الغنى السبكى » فى نفسه الفتية من رغاب ، حين كان صاحبنا يتلقى عنه درس تقويم البلدان ، عصر الخميس من كل أسبوع ، فى مدرسة بالسيوفية لا يخطر الآن اسمها لى ببال .

كان الأستاذ « السبكى » فوق كونه أستاذاً للتاريخ ،

رجل فن وفكر ، أديباً ملهماً ، وفناناً ذكياً ، يميط عن التاريخ الغوامض والمعميات ، ويجلوه لك فى ألواح أخاذة ، وكأن حوادثه قطع الصلصال تشابكت بين أنامله ، يلينها ويشكلها ويصبها فى قوالب فنية مبدعة تفتنك من روعة وسمو وجلال .

وما ينساب صوته فى الفصل يترسل على سمعك فى غنته الصافية ، حتى يبعث على مطرح وجدانك ، المدائن التاريخية من سباتها العميق تنفض عنها شملة التقادم والنسيان ، فإذا الذى كان رفاتاً يصبح فى طرفة عين كائناً حياً متكامل النضج ، فلا تعتم أن تتمثل لك الأطلال والدمن ، قصوراً يغمرها ضياء وتعمها ضجة وحركة .

ولا يفوتك وأنت تستمع إليه ، أن تعاود العيش مع تلك الحشود الجامعة ، تشركهم الحياة بما حوته من حلو ومر ، ولا يسعك إلا أن تحد السمع ، وأنت بحديثه موصول أنيس .

كذلك كان صاحبنا كلما ضمه الدرس ، فما تنقضى الحصة ، حتى يؤوب إلى داره يحتبس فى حجرته ، ثم يخرج إلى المستشرف ، يتكئ بساعديه على حافته ، وقد تملكه سهوم وهو يسترجع الدرس مع بواكير المساء وهدأة الليل ، وكأن على عينيه منظاراً مكبراً يقرب له البعيد ويدنى ما يهفو إليه ، أو كأن

بإصبعه خاتم سليمان وإذا هو يلفى نفسه متربعاً على بساط الريح ، يسبح فى أجواز الفضاء ، شرقاً وغرباً ، دون أن يعوقه فى منطلقه زمان أو مكان .

فلا غرو إذن وقد أصبح صاحبنا رجلا متكامل البناء ، صلب العود ، أن يتهافت على مصورات الجغرافية ومصنفات التاريخ قديمها وحديثها يجمعها إليه كى يروى ظمأه من مائها النمير ، غير مقتصد فى مال وجهد وسعى .

إنه يعيش فى الحياة فرداً لا رفيق له إلا تلك المجلدات التى تحتل من مغناه الرشيق حجرات ثلاثاً .

يستقبل صاحبنا ضحوة كل يوم ، غائصاً فى أحشاء المكتبات ، يتخير وينتقى ، ناسياً نفسه ، مشغولا بصفحات المجلدات كعاشق متيّم قد التحم والكتاب فى غزل صامت وديع .

وسرعان ما ذاع صيته بين أهل المكتبات فساروا يخطبون ودّه ويتنافسون فيه .

ويوماً اتفق لصاحبنا أن قصد حى الحسين فى جولة من جولات صيده اليومى ، فانخرط فى شارعه الممدود ، حيث تتزاحم على جانبه الشرقى المكتبات متراصة ، تبدى له كل منها حلاها وتسفر عن مفاتنها وتدعه مقسم النظر بينها فى حيرة وافتتان.

وأقبل صاحبنا على واجهات الحوانيت يتسكع أمامها فى تشوف وتعرف ، وأدت به خطاه الزاحفة ، إلى مكتبة الشيخ «أحمد المغربى» زعيم تجار الكتب لا فى حى الحسين فحسب ، بل فى مدينة المعز غير منازع ، فتوقف صاحبنا يجيل الطرف فيما حواه الحانوت من نوادر وألطاف .

فلما لمحه « الشيخ المغربى » مقبلا عليه انقطع عن تسابيحه واشرأب بعنقه المكتنز ، وكأنها عنق ثور صدف عن علوفته يرأرئ بعينيه ، وما عتم أن ثبت نظارته الصدئة المغبرة على أنفه ، وقد انبسطت أسارير وجهه فى إشراقة ، وانفرج فمه عن بسمة ملق ، يهدى إلى صاحبنا التحية رافعاً يديه إلى عمامته يسوى طياتها وهو يقول فى حماس :

أهلا . . . أهلا بالصديق الحبيب . . . صباحك صباح الندى ولا ريب . . . والله يا أستاذ إنك ابن حلال . . . رزقك يسعى بين يديك . . . عندى اليوم لك بشرى وأى بشرى . . . درة فريدة لا يفضلك فى اقتنائها آخر . . . حسبك أن تضيفها إلى دررك الغوالى . . . كتاب جامع عن الأندلس . . . موضوعك المفضل ... تجد فيه شعراً عذباً ونثراً بليغاً ... وتاريخاً عجيباً . . . وسيراً . . . وتراجم . . . وحتى السياسة لها شأن فيه

مرموق . . . خمسة عشر مجلداً . . . كل مجلد منها لؤلؤة نفيسة ما نظرتها عين من قبل .

وأخذ « الشيخ المغربى» ينشد جمله هذه وهو ينغم من صوته ويحد النظر فى صاحبه ، يتوضح بعين التاجر الدرب ، وقع النبأ فى نفسه . فألقاه مشبوباً يستخفه الشوق ويهفو به الفضول .

على أن صاحبنا أخذ نفسه بالحزم، وتماسك يقول مرسلاً ضحكة ناصلة ينشد بها ما يعتلج بين جنبيه :

الأمر يا شيخ المغاربة يتوقف على الثمن .

واستدار الشيخ دون أن يريم مكانه يعبث بين كومات عفراء من الكتب تسامقت خلفه ، وهو يغمغم :

الثمن أيسر مما تظن . . . انظر . . . تفرج . . . الوقت فيه متسع .

ومد يسراه إلى صاحبه بجزء من الكتاب الأندلسى المرموق ، يناوله ويمينه تضرب جلدته ضربات خفافاً أثارت حوله غلالة رقيقة من غبار ، وما لبث أن أخذه سعال ، فقال متحشرج الصوت محتقن العينين نافر الأوداج :

ـــ هاك الدرة الثمينة . . . تصفحها ... تجدنى ولا غرو قد صدقتك القول فيما وصفت .

تناول صاحبنا الكتاب يقلبه فى دقة وعناية ثم رفع رأسه يقول والكتاب متثائب بين يديه :

ما ثمنه يا شيخ ؟

ــ ما تجود به أقبله . . . ليس بيننا مماكسة يا أخى .

ــ إن ابتغيت حقًّا إتمام الصفقة فعلىّ بالكلمة الفاصلة .

وتشابك الرجلان فى مماكسة عنيدة أطالت من وقفة صاحبنا ، وأخرجت « الشيخ المغربى » عن وقاره وتحشمه ، فخاض فى حديث متشعب ، يستنكر ما عرض عليه من ثمن ، مؤكداً قوله بالأيمان المغلظة أنه لو ارتضى إتمام البيع على هذا الثمن لكان ، وحق السماء ، مغبوناً جد مغبون .

واشتد الضيق بصاحبه وأعلى الثمن على كره منه ينهى لجاجة الشيخ ويقطع حبل ثرثرته الحمقاء .

فجبهه « المغربى » بقوله ويداه بالكتاب مشغولتان تربطانه كأنه طفل يهدهده ويتلطف به :

صدق بالله ... إنها صفقة لى خاسرة ... لقد قبلت إعزازاً لمنزلتك عندى .. لغيرك ما فرطت فيه ولو بذل لى ضعف ما قدرت .

فشكره صاحبه وهو يتسلم الكتاب بأجزائه الخمسة عشر ، وانطلق بها فسيح الخطى يدف بجناحيه كالطائر وقد ظفر بصيده

يعجل به إلى عشه .

وتصرمت ليال .

وتوالت أيام .

وفجر يوم من أيام الصيف ، شوهد « عنتر المحلاوى » يبرز إلى المطار ، ويرتقى السلم إلى بطن الطائرة يأخذ مجلسه منشرح الصدر مشرق المحيا .

ودوت المحركات ، ودارت الطائرة دورة ، وثبت بعدها وثبة عالية رفعتها دفعة واحدة إلى أجواز الفضاء ، فانسابت فى طيرانها ، تغالب الريح فى جرأة وإصرار .

وانسرح صاحبنا فى تفكير ، يتحين ساعة يلتحم وأرض الأندلس الحبيب فى مصافحة جياشة ، ولقاء منشود .

كم من ليلة قضاها مسهداً بصحبة الكتاب الأندلسى ، تختلج فى نفسه شتى الأخيلة والأحاسيس .

شد ما تاقت نفسه إلى أن يستجلى ما هنالك من حضارة أينعت ، تتحدى أحداث الزمن وتصاريف الأيام .

ويدوى فى الطائرة صوت القائد يبين للراكبين ، أن الطائرة تحلق الآن فوق الهدف المأمول .

ويضطرب صاحبنا فى جلسته ، ويميل على طاق الطائرة يلقى

بأنظاره فى الفضاء، وكأنه أدلى بشص يتصيد به ضالته من أعماق الهواء.

وتطالعه الأندلس فى ثوب مفوف كغادة متأنقة تجتذبه من بهاء ورواء .

وتهبط الطائرة .

ويغادرها صاحبنا وثاب الخطى وكأنما هو نحلة ناشطة ، دائبة الحركة والدوران .

بيد أن غادة اليوم غير غادته الشرقية التى ألفها وأنس بها على مد الليالى وكر الأيام ، تسعده بسمرها الطلى ، وتشدو له شدوها الحنون .

ما للغادة اليوم تلوى لسانها ، تغمغم وتجمجم فى رطانة سقيمة لم يألفها لغة حديث بينهما من قبل ؟

أين هى من ذلك اللسان المستقيم الذى طالما أسكره بعذوبة تعبيره وترنيمة أنغامه ؟

ما للغادة نضت عنها ثيابها الفضفاضة يحليها وشى كوشى الربيع ، واكتست بديلاً عنها لبوساً أعجمياً ، وإن كان فى مظهره القشيب ، ما فتئ يحتفظ بفضلة ناصلة من طراز شرقى رشيق ، فالمغانى تتوضح لناظره على امتداد الطريق متحشمة تتستر خلف شملة من أسوار تحيط بها وتصونها كأنها أحراس

ينفذ منها هو فتحييه حديقة حالية ، تتوسطها فوارة مرمرية ينبجس منها الماء، وقد تحلقت عليها الأشجار والورود ، مختلفة الألوان والشكول ، وعلى جنبات الحديقة قبوات تهدى الخطى إلى الحجر والخدور .

رباه ! أتكون الطائرة قد سخرت منه وغررت به فأضلته السبيل؟

إن عينه حيرى بما تراه من آثار مطموسة المعالم حائلة اللون لا تلائم ما تمثله لها فى كتابه من عظمة وجلال .

لم يكن يدور فى خلده أن غادته التى صافته زمناً ستقدم له فى يومه كأساً غير التى نهل منها فأذكت روحه .

لقد غدت امرأة صلفة القلب ، جامدة الملامح ، وقد تألبت على التراث الذى ورثته لم ترع إلاًّ ولا ذمة ، بل انبعثت تركل وتبطش فى طيش جنونى وكأنها إعصار خراب وتدمير .

وقاده تنقله إلى قرطبة الخالدة حاضرة الأمويين ، ودرة تاجهم الأغر .

ماذا ! ! إنها ما برحت على عهدها ، تردد من صدر مقرور ، أنفاس أمس الغارب ، كشيخ فان طحنته الأيام وهدت عزمه العلل ، فأمسك عن المضى ، ينكمش على تراثه يحافظ عليه ما أمكنه الحفاظ فى يأس وقنوط .

أيهرب من غادته ، ويقفل راجعاً إلى كتابه يحتمى عنده ويأنس به .

ولم تدم حيرته ، فقد حثه الدليل فى زيارة إلى المسجد . . . مسجد قرطبة التليد .

هرع يطلبه وقد استبشر باللقاء .
دخله مشبوب النفس نشوان الفؤاد .

وما كاد يلتقى بالمحراب حتى ألفاه حبيساً خلف نطاق من سياج وقضبان ، يطالعه من وراء محبسه ، متطامن الهامة ، ذليل القسمات ، على الرغم من طرائف النقوش التى تزين جبينه فى خطوط موشاة ، تارة تستقيم وأخرى تتشابك وتلتحم لتتنافر وتشط دون أن تفقد وحدتها الفنية الرائعة .

إيه أيها المحراب . . . إن صمتك أنسانى ما حملت من تحيات وأشواق أنثرها فى حضرتك آيات مودة وحب وإكبار .

إنها من أخدان لك فى قاهرة المعز ودت لو تم بينها وبينك تلاق واجتماع على صعيد موحد . . .

لماذا لا تسعى إليها ، تشهدهم تلك البردة الموشاة التى تنسدل على منكبيك تتحلى بها فى تألق وبهاء .

سوف يحتفون بك لا مرية ، وسوف يطيب لك إن أنت

قررت الرحيل المكث والمقام .
أراك تختلج اختلاجة تألم وضيق واستنكار .
إنى أراك ذليل الحال خلف السياج والقضبان .
أأصبحت مجرد طرفة من طرف الفن تحج الجموع الحاشدة إليه مسلاة وملهاة ؟

فيم صمتك بحق السماء ؟
ألم يبق فيك بقية من حمية الشباب ؟
تكلم . . . هداك الله ورعاك .

وهنا مزقت سكون التناجى ، رنات ناقوس ، تشابكت بها ترنيمات أرغن ، تصاحبها ترتيلات وأناشيد ، فجمد صاحبنا فى وقفته ، وتملكته رعدة ، واضطربت شفتاه ، وغامت عيناه ، وعلى حين بغتة ، انبثق صوته يدوى بتكبيرة الصلاة ، فتناثرت الكلمات فى رحاب المسجد قوية الجرس ، وكأنها مع صدى صوته أصوات المصلين من أهل الأندلس فى عصور سوالف ، بعثت من مراقدها تردد فى إيقاع موحد : الله أكبر ، فما لبث صوته أن تعاظم وتضخم ، وإذا هو يخر راكعاً يتشبث بالسياج والقضبان الضاربة نطاقها حول المحراب ، يهزها فى عنف ، وكأنه يبغى أن يقتلعها ، يمهد للمحراب الحبيس سبيل تحرر وفكاك .

العقبة

جلس السائق « مدبولى » إلى عجلة القيادة من سيارته العجوز ، يجريها على الطريق العريض ، إذ يتحوى أمامه على مد البصر كالرقطاء فى انسيابها تنكمش وتنبسط ، فلا يملك هو إلا أن يروض سيارته ، مطاوعاً فى حركاته ليات ذلك الطريق ، وعلى جانبيه تترامى الحقول شاسعة تكسوها خضرة ونضرة.

كان هذا الصباح على غير المألوف من عادته ، نجهم السحنة ، عاقد الجبين ، يضرب فى صمت وسهوم ، وبين شفتيه لفافة تبغ رخيصة ، يجذب منها الأنفاس وكأن دخانها المتصاعد هو أنفاسه المكروبة ، ينفثها من صدره ، تسرية عن فؤاده الكليم.

كيف لا وقد ألفاه الصباح الندى ، مقتعداً سريره الخشبي من حجرته المعتمة ، وقد سهر عامة الليل ، تتوسد حضنه المكتنز صغيرته « مبروكة » صريعة الحمى ، تسرى فى أوصالها رعدة ، فكأنها عصفور يدف بجناحيه مبتغياً على ضعفه الفكاك والانطلاق ، وعن كثب منه زوجه وقد تداخلت فى خمارها الأسود

وجلبابها السابغ كقطعة من الليل ، لبثت حيث هى جامدة لاتحسن من أمرها إلا تنهد الاستسلام، وفى مآقيها تتحير الدموع .

كان ذلك المشهد يتخايل أمام عينيه وقد جمحت السيارة جمحة أفقدتها الاتزان ، فشدد « مدبولى » قبضته على عجلة القيادة ، وهو يفيق من غفوته ، نائياً بالسيارة عن مخاطر الطريق ، وقد ثارت ثائرته ، فانبعث يسب ويلعن ، وما تمالك وهو فى قمة غضبه إلا أن يبصق بملء فيه ، بصقة عريضة ، ينعى على الطريق اختلاله .

وسرعان ما ألجم سيارته يحد من سرعتها ، فما لبثت أن تهادت مجهدة تتعثر خطاها بتموجات الطريق ، ما تلفظها فجوة حتى تتلقاها أخرى ، وكأن الطريق يستبين له ، وجه عكر تفشت فى نواحيه الغضون والتجاعيد .

حقاً إن الطريق ليفتقر إلى يد حاسمة تتولاه وتحد من اضطرابه وفوضاه . إنه وهو على حاله هذه ، يشكل على لقمة العيش ، ولا ريب ، الخطر كل الخطر .

ما أحوج « مدبولى » إلى سبيل هين ميسور ، يتلقى سيارته وديعة غالية يصونها ويحرص عليها ، ضامناً له الرزق فى سماحة وأمان .

لقد اعتاد « مدبولى » أن يصاحب « الطريق العريض »

مع مطلع كل فجر ، بعد أن يؤدى الصلاة حاضرة ، فيعرج على الترعة ينعش سيارته بما يسكبه عليها من الماء ، ثم يعرض خدماته على المسافرين عند الموقف الكبير ، مرتضياً ما يقدم إليه من أجر دون مماكسة ونزاع .

فلْيسرْ على بركة الله وهديه .

لقد يسر الله رزقه فازدهرت تجارته ، وعمه خير ، وما عتم أن استبانت على السيارة العجوز مخايل تلك النعمة وذلك الخير ، فنضت عنها أسمالها واكتست بردة الشباب النضر ، وقد رصعت جوانبها حكم وأمثال تزيدها نضرة وبهاء .

وأصبح « مدبولى » يزهو بسيارته ، يسوسها فى رفق ويحافظ عليها حفظ الأم لوليدها ، فلا يفتأ يستشف وجه الطريق فى تيقظ وانتباه حتى أضحى به خبيراً وبخباياه عليماً ، كقارئ كف يطالع من بين تعاريج الخطوط كوامن الأسرار فى تمكن واقتدار .

إن ما يخيفه من الطريق فجوة تتصل بها عقبة متورمة كسرطان خبيث يتوعد الغافل بخطر محقق وهلك وشيك ، فالطريق يخفيها فى حضنه عند موقعه المرتفع حتى لتكاد تخطئها الأنظار .

إنها فى تنفخها وانبعاجها تنكر مرأى السيارات ماضية إلى وجهتها تبتلع الطريق وتطويه أشد ما تكون حيوية ونشاطاً دون

أن تتصيد إحداها ، تصرعها بما تنفثه على الطريق من سم زعاف .

لا غرو أن يحمل السائق « مدبولى » فى وليجة نفسه لهذه الحدبة المتورمة حقداً دفيناً ، ولا غرو أن ينعقد بينه وبينها صراع ، حتى أصبحت شغله الشاغل فى ذهاب وإياب ، لا يفتأ يلتزم الحيطة والحذر مجنداً فى معركته اليومية حواسه جمعاء : العين منه ثاقبة ترصد الطريق فى تبصر ، واليد قابضة على عجلة القيادة فى إحكام توجه السيارة وجهة أمن وسلام ، والقدم آناً تحث السيارة على إسراع ، وآناً تبطئ بها فى تحرز واحتراس .

إنه كلما تخطاها حدجها فى استعلاء وكأنه يهمس لها فى سخرية : لن تناليني بسوء أيتها الحدبة الشوهاء ، ويخالها تبتسم له فى فتور متوعدة إياه فى هدوء دون أن تثير حولها الظن والارتياب .

لا ريب أنها باقية بقاء الطريق ، فجذورها متأصلة فى أحشائه يتعذر أن يسبر لها غور ، وأن يصل إليها مبضع جراح .

ومر الوقت وشيكاً والسيارة ماضية فى مسيرها تتعثر ، و « مدبولى » يتوسم الطريق مبتئس الملامح ، يواصل التفكير فى مرض صغيرته ، وقد شعر بها تتشبث به عندما نحاها إلى زوجته ، وكأن لمسات يديها البضتين جمرات تحرق صدره ، فلا يلبث أن يزداد من عبوس وجهامة ، يجتر أحزانه ، ويقاوم

خدراً انساب فى أوصاله يكاد يطبق أجفانه .

وفيما هو كذلك ، إذا بالسيارة تصدم صدمة قوية ترفعها ثم تخفضها لتنحرف بها فى عنف على حافة الطريق ، فتتقلص فى مكانها ، ومن خيشومها يتصاعد بخار موصول هو زفرات تحسر لما نابها من توقف وانكسار .

ويزايل « مدبولى » مكانه من القيادة ، يتفقد السيارة ثائر النفس ، زائغ البصر ، مهوش الحركة ، لا يثبت على حال ، فتطالعه السيارة مهيضة الجناح ، وقد جمد محركها يلفظ فى عناء آخر الأنفاس .

ولا يتمالك « مدبولى » إلا أن يرتمى عليها بجرمه الثقيل يحتضنها وقد سرت فيه رعدة عارمة ، وكأن نهاره انقلب ليلا ، وكأنه على سريره الخشبى من حجرته المعتمة ، وعلى صدره ترقد صغيرته « مبزوكة » ترجف وتهذى من وقدة الحمى ، وقد بسط لها صدره كله ملاذ أمن وسلام .

وينخرط « مدبولى » ينشج فى حرقة وهو يبصق ويبصق على الحدبة المتورمة ، على حين انبعثت قدمه تدق رأسها فى عنف واهتياج ، وكأن الحدبة المتورمة فى تثاؤبها ثغر يبتسم له ابتسامة زهو وانتصار .

ريحان القبور

يطالعنا يوم الوقفة ، من كل عام ، فى ضجة ما بعدها ضجة ، متجدد الشباب ، مشرق المحيا ، وقد نضا شملة السكون الخامل ، واستبدل بها لبوس الحيوية واليقظة .

ما إن يهل علينا ، مع النهار الوليد ، حتى نهتف من الأعماق متهللين لمقدمه ، وفق ما رسمه من شواغل ، وما سنه من نواميس .

وإنى أتمثله ، فى موكبه العظيم ، أميراً من هؤلاء الأمراء المستبدين ، انبعث يفرض علينا سلطانه فى إصرار وعناد .

وما أسرع أن ينتهب ما بأيدينا من المال ، فإذا المتاجر تستنزف قوانا فى مشتريات يعدها الأمير من لوازمه ، دون أن تأخذه بنا ذرة إشفاق .

والويل كل الويل لمن يعصى أمر الأمير أو يخرج عن طاعته ، فلا يعتم ، أن ينقلب اليوم البهيج ، مناحة ، يسكب فيها أهل المارق ، دموع الأسى والتذمر والإنكار .

مساكين هؤلاء المتزوجون .

أحمد الله ، أنى ظللت فى مأمن من المرأة ومنأى ،

أعيش، كما تعيش القواقع فى تفرد، أنعم فى مثابتى بأنس وصفاء .

مخبول هو من نعت النساء بصفات الضعف، والدعة، واللين.

إنهن ، أعزك الله ، نمرات متمردات ، دائمات الشكاية والتأفف ، همهن الأكبر فى يومهن الأطول أظفارهن .

تأخذهن ، إن اجتمعن أو تفردن ، عاكفات يقلمن الأظفار ، على رأس المحك الدقيق ، كما يشحذ السنان الدرب ، نصل السكين ، على حجر المسن العريض .

إنهن دائبات العناية بأظفارهن كالجندى الحصيف ، يظل عاكفاً على سلاحه ، يهيئه ليلبى به ، دعوة الداعى ، متى نفخ فى البوق ليعلن التطاعن والقتال .

وإنك إن تساءلت لماذا يؤثرن الخضاب الأحمر يطلين به شفاههن ، دون سواه من ألوان الزواق ، أجبنك فى براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، والدهشة آخذة بهن ، إنه أداة زينة وتجمل . . . ليس إلا ..

لا . . . لا تسمع لهن .

إنهن يموهن عليك .

وما اللون الأحمر إلا رمز لدم الفريسة المسفوح ، ينددين به

شفاههن الظامئة إلى فتلك وانتهاش .

مساكين هؤلاء الآباء .

يحسبون أنهم خالدون ، متى نجم لهم فى الحياة نبت .

يظنون ، وما أسخف ما يظنون ، أنهم فى أولادهم يعيشون ، وفى أولاد أولادهم ، هم مستمرون متجددون .

أليست هذه الفروع ، وتلك الجزئيات ، من عنصرهم الأصيل ، يتوارثون عنهم خصائصه المميزة ، جيلا بعد جيل .

هذا هو الخلود ، بحسب زعمهم ، عين الخلود .

يا لهم من جبناء رعاديد ، يتهيبون الموت وجلة قلوبهم ، فيخلقون هذا الوهم ، يتعزون به عن الموت ، ويقصون من دنياهم أشباح الفناء .

الموت حقيقة الحياة الكبرى ، والفناء طبيعة الوجود الراسخة ، أيها الجاهلون .

أحمد الله ، أنى ما زلت قوقعة ، لم ينبت من صلبي عود أى عود .

وقانا الله الذرية ، صالحة أو طالحة ، فليست هى إلا شر الحياة ، ووجهها المكفهر العبوس .

أليست هى بطوناً خاوية تطلب الشبع والامتلاء ؟

أليست هى أجساماً عارية تطلب الدفء والغطاء ؟

أليست هي ، بعد ذلك ، بحاجة إلى تربية وتنمية وإلى صقل وإعداد ؟

أليس كل هذا نفقات تلو نفقات تنوء بها الكواهل وتندى لها الجباه ؟

مساكين هؤلاء الآباء بما يرهقهم به يوم الوقفة من مطالب مسرفة تسلمهم إلى إعياء وضنك .

وعلى الرغم من حياة الاقتصاد التى أحياها ، وأنا فرد أعزل أرانى ، فى هذا اليوم ، وقد خرجت نفسى عن طاعتى ، كدابة حرون تأبى السير فى طريقها المرسوم .

لا غرو إذن ، أن ألقى ذلك اليوم ، يوم الوقفة ، متكرهاً ، أستنكر منه تطاوله على نقودى ، يبعثر فى السوق ، خلال ساعة ، ما اقتصدته فى شهور .

وتشهدنى القرافة ، مع الأصيل ، أسلك دروبها العفراء ، محتضناً « فطائر الرحمة » يطويها دثار من ورق شفاف ، كأنها الوليد توسد حضن أمه ، مدرجاً فى لفائف من حرير ، ومن خلفى رجل بطين ، قصير القامة ، مكتنز العود ، يتقفى أثرى ، متلاحق الخطو ، وقد توج رأسه سفط الفاكهة والتمر ، على حين تدلت من يده طاقات الريحان ، يحسبه الناظر إليه ،



ثوراً تهادى بين القبور : له من سحنته لغد يترجرج على صدره العريض ، كلما تعثرت قدماه بفجوات الطريق ، وله من عوده بدانة مفرطة ، ومن مشيه تخطر متزن وئيد ، وله من عينيه حدقتان تدوران فى محجريهما ، فى تلصص ، وعلى شفتيه ، يتحلب ريقه كما يتسايل لعاب الثور لمرأى أعواد البرسيم النضير .

وما إن يحتوينى والرجل فناء المدفن ، حتى يحاصرنى حشد العفاة ، منبسطة سواعدهم ، يستجدون العطايا فى هرج وهياج كأنهم قطيع الذئاب الجائعة ، تحلقت على الفريسة ، تعوى عواءها الكئيب .

وسرعان ما أدفع إليهم بما جلبته من فطائر ، وفاكهة ، وتمر ، حيناً أحاسنهم ، وحيناً أخاشنهم ، لا يفوتنى أن أعمل فيهم قبضتى ، محتفظاً لقدمى فى المعركة بالنصيب الأوفر ، لأفك عنى حصار ذلك الطوق العصيب .

ولا تسأل عن الرجل الثور ، وسط هذا الهرج والمرج ، فإن تفقدته عيناك ، ألفيته منكمشاً فى ركن من الجبانة قصى ، خلص إليه من المعركة ، كما تخلص الشعرة من العجين ، وقد أطبق فكيه على فطيرة سمينة ، اختلسها فى غفلة منى ، يلتهمها هانئاً ، وبين القضمة والقضمة ، يعتصر ليمونة حلوة بين

شفتيه ، يرتشف رضابها الشهى ، يرطب به حلقه الغصان .

فإذا انفض الجمع ، انصرفت إلى قبور الراحلين الأعزاء ، أنثر عليها أعواد الريحان ، وعن كثب يتربع قارئ ضرير ، يرتل آيات الله المحكمات ، آناً يتعوج ذات اليمين وذات الشمال ، وآناً يتقاصر ويشرئب ، على إيقاع صوته الجهير ، فأجلس إليه أستمع ، مطأطئ الرأس مسبل العينين ، أتمايل فى جلستى تمايل مستمع طروب .

ولا ألبث أن أطير إلى عالم الخيال ، فيرتد بى الزمن إلى عهد خلا ، أعيش فيه أنسه وعبوسه ، وأنا ما زلت فى مكانى قاب قوسين من اللحد . . . . اللحد الذى سوف يضمنى حتماً إليه .

وكأنى أحس بالقبور تنتفض انتفاضة الحيوية ، تخلع عنها العفاء والصمت ، وتندفع فى حركة وحديث ، وكأن شريان الحياة لم ينقطع عنها ، فهى تسعى بين يدىّ سالف سعيها ، وكأن ظلام الفناء لم يغيبها عن الوعى ، طرفة عين .

يا للذاكرة من مستودع عجيب !

إن آلات الحفظ والتسجيل ، فى عصرنا الحديث ، إذا قورنت بتلك الذاكرة ، تصاغرت وعجزت أن تكون مثلها فى حفظ ما استودعت من العطب والضياع .

إن ودائع الذاكرة ، تظل خالدة فى معناها وجوهرها ، تساير الزمن وتصابره . . .

ورفعت رأسى أمسح دمعة حزن فرت من عينى .

واستقبلت العراء على غير عمد ، فألفيتنى أصافح وجوهاً جاءت إلى المقابر مثلى ، تحيي موتاها من الأعزاء الراحلين .

وتعثرت نظراتى فى تطوافها بقبر ، هين المنظر ، قائم وحده ، بين المدافن المشيدة ، لا سقف يظله ، ولا جدار يحميه ، وقد تأكلت زواياه ، وتهورت جوانبه ، وتهاوى شاهداه ، فلم يبق منه ، إلا أنقاض أحجار مثلمة ، كأنها أسنان نخرة صفر ، انفرج عنها فم محطوم .

لم يكن حول القبر سوى كلب أسود شريد ، سعى يحوم حول الحدث ، ويتشمم جداره ، وقد امتد خرطومه البليل إلى فجوات القبر يتفقدها فى هوس .

وما عتم أن اطمأن إلى إحداها ، فكف عن سعيه المحموم ، واقتعدها يقضى حاجته آمناً ، وقد تقوس ظهره ، وتقلصت عضلاته ،واشرأب رأسه يرأرئ بعينيه ، يصافح خطرات النسيم دون أن يحس زاجراً من يد قوية ، أو « وت غضوب .

وهزنى ما رأيت هزة ، زلزلت كيانى ، فقفزت أعدو ثائراً ،

أتوعد الكلب فى صوت جهورى ، وتناولت حجراً رجمته به ، فأصابه فى رأسه ، بين عينيه ، فانتصب يعدو هارباً ، يعوى عواء التوجع والغوث ، وقد أدلى أذنيه ، وضم ذيله بين فخذيه .

ومثلت أمام القبر ، ووقفت فى صمت أتملاه ، ودارت فى رأسى خواطر .

حقاً ما أحزنه من قبر بين القبور .

أين هو من هذه الأجداث التى تزينها الورود والرياحين ، وتؤنسها بالتعهد والزيارة : الزوجة الوفية ، والذرية الصالحة .

أكذلك مصير القبور حين تفقد تعهد الأهل والأقربين ؟

يا لله ! ماذا أقول ؟

الزوجة . . . الذرية . . .

البنون . . . البنات . . .

وتراجعت عن القبر مشتت الفكرة . . . تائه النظرة . . . وقد عرتنى قشعريرة ، واستبدت بى رهبة ، وقفلت إلى الدروب المتربة ، أفسح من خطاى ، لأطلب الطريق الممدود بمنأى عن مثابة الموت والعفاء ، أكاد أصرخ : لا أريد أن أموت . . . أريد الخلود . . . الخلود . . . كل الخلود !

خمسة قروش

إلى صغيرتى ع. ر. مع الحب والإعزاز

هى طفلة لم تتخط بعد عهد التفتح والازدهار ، ضن عليها القدر برفيق تأنس به ، فظلت وحيدة أبويها تعيش فى كنفهما عيشة العزلة والانفراد .

دنياها التى ألفتها : عم كسيح قيد الشلل أوصاله ، لا مشغلة له فى يومه الأطول إلا الشكاية والسخط ، وعمة اغتالت المنية عائلها فخلت لطفلة أخيها ترعاها فى صرامة وحزم ، فما لبثت أن فترت صلات الطفلة بعمتها لما تلقاه على يديها من شدة وعنت .

وكانت الطفلة تلقى فى الحين بعد الحين خالة لها عقيماً لم تكتحل عيناها بمولود بعد ، فصبرت على حرمانها تمنى النفس حتى تبدت فى سمائها تلك الطفلة ، فحومت حولها تحويم الحمام على فرخه الصغير .

لم يكن مستغرباً من الخالة أن تبسط لابنة أختها جناح

حنانها كلما قدمت لزيارتها ، ولم يكن من المستغرب من الطفلة أن تسعى إلى خالتها تطلب عندها الأنس والسلوى ، فما جمعتهما جلسة مشتركة إلا ارتدت بالخالة السن فتبدو وكأنها صبية لها ما للصغار من خصال ، وفيها ما فيهم من مرح ونزق .

واستقر فى ذهن الطفلة أن خالتها ما هى إلا خدين تلعب معه وتسمر ، إذ كان من المحظور عليها أن تشارك لداتها من صغار الحى الانطلاق والمراح ، فقد أزمع والدها أن ينشئها تنشئة طابعها جد واتزان .

لا غرو أن تنبت بين الخالة وبنت أختها أواصر ألفة سرعان ما تطورت فأضحت حباً عارماً يحمله كلاهما لصاحبته دون مواربة أو خفاء .

واعتادت الطفلة كلما باعدت شواغل الحياة بينها وبين خالتها أن تجلس إلى « الهاتف » تناجيها فى ثرثرة موصولة ، وتنمق لها لوحاً يستوعب كل ما وقع لها من حوادث ومغامرات ، فتظفر من خالتها على متن الأثير بالمديح والإطراء فى حديث مؤنس ترصعه نكات ودعابات .

ويوماً أسر إليها الهاتف بنبأ أزعجها .

ذلك أن خالتها حليفة الفراش مقيدة إليه بأمر الطبيب .

وفى حجرة المريضة وقفت الطفلة على سر المرض ، وهى تنصت إلى صوت خالتها يترنم بقولها ، وقد التمع وجهها من بشاشة وإشراق :

عما قريب يكون لك رفيق تمرحين معه وتلعبين .

وانطلقت الطفلة تسأل وقد أثار قول خالتها فضولها :

متى يكون ذلك . . . أفى غد أظفر به ؟

ــ لا يا حبيبتى . . . بعد بضعة أشهر .

ــ أيمكننى أن أراه ؟

ــ لم يحن الوقت بعد .

ــ وأين هو الآن ؟

فأومأت الخالة إلى جنبيها تقول وقد التمعت عيناها وتورد خداها من اعتزاز وزهو :

هنا .

وامتدت يد الطفلة إلى خالتها تتحسسها فى رفق وتهيب .

وابتسمت الخالة تسألها :

ماذا تريدين أن يكون المولود . . . بنتاً أم غلاماً ؟

ــ بنتاً . . . نعم بنتاً .

واتفقا فيما بينهما على نوع المولود دون أن تبدى الخالة أى تمنع أو اعتراض .

فليكن ما يكون . . . المهم أن تظفر الحامل بمولود تسعد به وتستبشر .

ويوماً دلفت الطفلة إلى خالتها تحمل بين يديها صرة صغيرة، وتقربها من سرير الخالة تفك عقدها وهى تشقشق بقولها :

هاك بعض الملابس . . . خطتها بيدى .

وأنشأت تعرض على خالتها مزقاً هينة لا تصلح لبوساً إلا للعرائس والدمى .

لم تتمالك الخالة إلا أن تحتضن الطفلة تطبع على خدها قبلة حافلة ولسانها لا ينفك يرطب مسامع الطفلة بكلمات التشجيع والإعجاب .

وتصرمت أيام .

وجاءتها الطفلة تزورها على المألوف ، وما استقرت بجانب خالتها على السرير ، حتى دست يدها فى يدها تقول :

هاك خمسة قروش . . . هدية للمولود .

فابتسمت الخالة ابتسامة ساطعة ، ثم احتضنت الطفلة تقبلها فى شوق مزيد . .

وقهقهت الأقدار وهى تضرم النار فى ذلك الحلم السعيد ، فما نشب أن تناثر رماده فى رحاب الفضاء .

أجهضت الخالة .

وتبين للطفلة من أمشاج الأحاديث أن أمنيتها خنقت فى

مهدها ، وقد غيبتها الأقدار فى عالم بعيد المنال . . . فى جب سحيق تسد فوهته جنادل صماء .

ومنذ ذلك الحين حبست الطفلة لسانها لا تجريه بذكرى ذلك الأمل المفقود .

وطويت أسابيع .

وكانت الطفلة جالسة تثرثر لخالتها ثرثرتها الأنيسة .

وعلى حين بغتة كفت عن الكلام ، وواجهت خالتها تهمس لها بما كان يشغل بالها ويمض خاطرها :

أين خمسة القروش . . . . لم يعد لك بها حاجة !

وأحست الخالة بطعنة تنفذ فى أعماقها ، لكنها كظمت ألمها ، وقامت متثاقلة إلى حجرة نومها ، تستخرج من صوان الملابس صرة المزق وكانت النقود بينها ، فأخذتها وعادت إلى الطفلة وهى تجتلب لفمها بسمة متكلفة ، وتقول :

هاك النقود يا حبيبتى . . . تستطيعين أن تبتاعى بها ما ترغبين فيه من حلوى .

ووثبت الطفلة إلى الباب خارجة وهى تتمثل ما سيقع عليه اختيارها لتشتريه ، على حين انكفأت الخالة على وسادتها تلوذ بها لتخفى فى طياتها عيناً تحيرت فيها الدموع .

ساعة راحة

استلقت « سنية » تتقيل بعد ما أصابته من غداء دسم . واستوى زوجها على مقعده الوثير وقد تحرر من رباط الرقبة ، واستبدل بحذائه خف البيت المريح ، وما إن اطمأن فى مجلسه على المقعد الرحيب ، حتى حانت منه التفاتة إلى جريدته ، فنشرها بين يديه ، وأخذ ينقل نظراته بين سطورها يتلقط الأنباء ، فاتر الهمة ، متخاذل الأوصال ، وقد تدلت من فمه لفافة تبغ يتشكل دخانها دوائر وحلقات .

وأظل الزوجين صمت موصول ، وكلما قلب « عزيز » صحائف الجريدة خشخشت تشوب رونق السكون .

وكانت أسجاف النوافذ مسدلة تحجب وهج النهار ، فأضفت على الحجرة جواً من رخاوة وهدوء ، وغازل عينيه طائف الكرى ، فما عتم أن استجاب له فى رضا واستسلام .

ومضت الدقائق يأخذ بعضها بتلابيب بعض ، فتجمعت فى حساب الزمن ساعة ، وما انفك الزوج غائباً عن العالم المحسوس

ينبعث منه غطيط ملحوظ .

وتتابعت حشرجة الزوج تحاصر مخدع الزوجة ، وتنفر عنها لذيذ النعاس ، فاعتدلت تبصر زوجها ما فتئ على كرسيه ممدداً ، والجريدة تتدلى من يديه حتى تلامس الأرض ، وخصلة شعره تتشعث على جبهته ، وفمه منفرج عن ذلك الغطيط المسموع ، فاستشعرت بعض الضيق ، وجالت نظراتها فى عرض الحجرة على غير هدف كأنما تتلمس فى أثاثها مسلاة تعينها على قتل الوقت ، ريثما يستيقظ رفيقها النئوم ، لتعاود معه الحياة .

وأولت وجهها سقف الحجرة ، فما وقعت عليه عيناها ، حتى تشبثت به لا تقوى أن تزور عنه ، كأنه يشع تياراً كهربياً يجذب إليه البصر .

وكان من المألوف لديها ، أنها إذا علق نظرها بالسقف استبد بها سهوم يدنيها من عالم الأحلام . وسنحت لها فكرة ، فكرة لطيفه شائقة ، فلم تطق أن تتركها فى تلافيف رأسها الفضى ، فتنحنحت مرات تقطع على زوجها نومته ، فاضطربت أوصاله يتنبه ، وما هى إلا أن فتح عينيه ، وأطلق تثاؤبة كبيرة وهو يهمهم :

أنت يقظى . . . ماذا فى الأمر ؟

فقالت له الزوجة تداعبه وتزجى ضحكة لينة عابثة :

هبطت علىّ فكرة . . . أقسم لك إنها لا تخلو من طرافة.. إن سقتها إليك سررت بها لا ريب . . . ستتيح لنا فرصة لهو ومؤانسة . . . سأحدثك :

ـ تحدثيني ؟ !

ـ أمامنا متسع من الوقت ، ولم تحن بعد ساعة الخروج . . .

ففرك الزوج عينيه فى دهشة ، وحملق فى زوجته يتبين تلك الفكرة التى طرأت على غير موعد ، فقطعت عليه فترة الدعة والاستجمام . . .

وتهيأت الزوجة للكلام ، وإذا هى تقول :

ماذا يا « سوسو » أما زلت نائماً . . . ألا ترعيني سمعك ؟

وهز الرجل كتفيه حانقاً ، وأقبل على نفسه يلملم ما تبعثر من شأنه ، فنحى الجريدة عنه ، وعمد إلى خصلة شعره النافر يسويها ، ليستمرئ تلك الفكرة الطريفة التى هبطت من السماء على زوجته ، لتنصب على رأسه شقوة ونقمة . . .

وسارعت الزوجة تكاشف رجلها بذات نفسها فى تحمس ، وهي تستجمع على السرير ، وتعتمد ذقنها بإحدى ركبتيها ،

وعيناها يتلألأ فيهما دهاء :

هب أننا لم نكن متعارفين ، وهيأت لنا المصادفة أن نجتمع . . . فالتقينا . . . أين يا ترى ؟ . . . .

ودارت « سنية » برأسها تفتش عن عش لائق ، وبعد لأى خرجت من صمتها تقول :

وجدته . . . دار الخيالة . . . اكتشفتنى أنت وأنا أبتاع تذكرتى لمشاهدة العرض . . . كنت تلينى فى الصف عند الشباك . . . فتنتك وسامتى وهمت بى أشد هيام . . . تعمدت أن تظفر بالمقعد الملاصق لمقعدى . . . تحققت لك الأمنية فجلست بجانبي . . . هذا هو الافتراض . . . ساذج بسيط كما ترى . . . .

وتململ الزوج يزجى بكلمة ، لكنها تابعت تقول :

يحق لى أن أسائلك إذن ماذا كنت فاعلا . . . أتحاول ملاطفتى والتودد إلىّ . . . ؟ أتقبل علىّ مطنباً فى إطرائى مشيداً بطلاوتى . . . ؟ أتتحين الفرص للامسة يدى تبتغى بها الوسيلة إلى مجاذبة الحديث . . . فإن زجرتك تصنعت الأسف ، وأطلقت لسانك بكلمات استعفاء . . . أكنت واجداً نفسك مسوقاً تختلس إلىّ النظر تشفى به قلبك الولهان ؟ . . . بماذا

تجيبنى . . . ؟ تمعن . . . كل كلمة تتفوه بها لا ريب محسوبة عليك . . .

واستمع « عزيز » إلى زوجته وهو يتميز من الغيظ ، فأطلقت « سنية » ضحكة طائشة ، وغمغمت :

. . . عند الامتحان يكرم المرء أو يهان !

وشفعت قولها بابتسامة ساخرة .

وأطبق عليهما الصمت ، وانصرف الزوج يحك رأسه بأنملته يفكر فى إجابة لا تأخذها عليه زوجه ، فتعكر بها صفو يومه .

وأحد الرجل فطنته ، غير أنه ألفى نفسه صامتاً لا ينبس ، فنهضت إليه زوجه فى غلائلها التى تشف عن جسدها البض وعودها المشيق ، فأطال إليها النظر يتملاها وعيناه تفيضان بالأحلام .

وأدركت الزوجة ذلك منه ، فرفعت صوتها تقول والبشر يتوضح على محياها :

ستحاول حتماً مغازلتى . . . ستسر إلىّ بكلمات المديح والإطراء . . . ستتحين فرصة انكماش النور لتلمس يدى . . . ستتصرف مثل أترابك ولداتك . . . واهاً منكم معشر الرجال .

وأمسكت هنيهة تجتذب أنفاسها . . .

حقاً إنه لرجل مثل سائر الرجال . . .

ماذا يعصمه . . . ؟

لن يكون إلا كذلك ينساق فى مغازلة رخيصة ، لا يحجم ولا يحتشم .

واستبد بها هذا التفكير الحائر ، وانقلب زوجها هذا الرجل الكريم فى عينيها عابثاً ماجناً غير مستقيم ، وشاعت على وجهها مسحة من كآبة واغتمام . . .

واستبان الزوج ما تعانيه « سنية » من هيجة وقلق ، فأقبل عليها يبغى كلاماً ، ولكنها صرخت :

دعنى أتم لك حديثى . . . . لم تكن تفوتنى خفية نفسك ومكنون حيلتك . . . عهدتك ونحن فى الطريق أو فى محفل جامع تقلب النظر فى الأوانس الكاعبات تكاد تبتلعهن بنظراتك العطشى ، ولسان حالك يقول : حرام أن يغلوا رقبتى برباط الزواج مبكراً . . . وكم مرة يطالعنى وجهك وقد شاعت فيه أمارات غم وتحسر . . .

وأراد الرجل أن يخرج من صمته ، وقد ضاق ذرعاً بذلك الافتراء الأثيم .

أليس من حقه أن ينفى ما يرمى به من نعوت ؟

لا . . . إنك لا تملك لنفسك حقاً !

واعتدل الرجل فى جلسته يشعل لفافة تبغ ، وكان ينفخ دخانها فى ضيق ، على نحو مثير .

فألفت « سنية » نفسها منساقة تتطلع إلى الدخان المتطاير ، وجمجمت فى غيظ :

نعم . . . أنت تشعل لفافتك لتخفى ما أنت فيه من حيرة وارتباك . . .

فأشاح الرجل بيده ، وهو يمط شفته علامة النفى ، فسمعها تهمهم :

إنى على حق . . . كل الرجال خونة . . . خونة . . . أسامع أنت ؟

وصدفت عنه « سنية » تلوذ بركن قصى وهى تبرطم ، وقد استبد بها نشيج تقطعه تلك العبارة :

لا تحسبنى أغار . . . فهذا آخر ما يخطر لى على بال !

وماذا عليه إن كان عابثها ؟ . . . ألم يكن يومئذ مثل هذا الهواء طليقاً لا إمرة لأحد عليه ولا سلطان . . . ؟

وأين هو من الخيانة . . . ؟ ألم تفترض فى معرض الحديث أنه أعزب ليس فى حياته امرأة توجب عليه حقاً يرعاه . . . ؟

يا للنساء . . . !

عليه معالجة الأمر ، عليه أن يترضاها وأن يستغفرها من ذنب لم يقترفه .

وهبّ الزوج يترك مقعده ، وسار إلى زوجته يشيع على محياه اضطراب وأسف ، وحاول أن يحنو عليها ويحتويها فى صدره ، فأزاحته عنها فى حركة تنم عن التأفف والاستنكار .

ولكنه هبط على أذنها فى ملاينة وتلطف قائلا :

هبى أن ذلك وقع لك ولى ، ألست تسعدين بأن زوجك أعجب بك قبل أن تصل بينكما عقدة الزواج ؟

فردت عليه فى جفاء ، وما فتئت توليه ظهرها ، شامخة الأنف :

وهل كنا زوجين . . . ؟

فقاطعها يقول محاولاً الإقناع :

لقد أصبحنا زوجين !

فأقبلت عليه توليه وجهها وما برحت شرقة بالدمع :

لم تكن تزوجتنى بعد !

— ماذا يهم ، وأنت نفسك فى الحالين بيت القصيد ؟

وتلعثمت الزوجة ، فأردف يقول :

ألم يدلك كل ذلك على قوة إعجابى بك وحبى إياك ؟

وجنحت « سنية » إلى المسالمة ، فجذبها إليه ، فطاوعته ، وتمتم فى صوت خافت وهو يحتويها بين ذراعيه :

ما زلت هائماً بك يا « سنية » . . . ملكت قلبى . . . أحبك . . .

فقالت له فى تخلع ودلال ، وهى تجتذب منديله من جيب سترته ، تجفف ما تلألأ على خديها من دموع :

ماذا تقول ؟

أحبك . . . أحبك . . .

وتنهد الزوج تنهدة مديدة ، فأقبلت الزوجة عليه ، عيناها متناومة ، وفمها يتردد ، فهوى عليها فى قبلة محتدمة ، وعناق جياش ! . . .

صل من أجلى

انحنى على الطفلة بعوده المفتول ، واستقبل جبينها المرح يودعه قبلة طويلة وهى موشكة أن تنام .

ولامست أنفاسه وجهها ، فطوقت عنقه بساعديها ، وهبطت على وجنتيه تلثمهما فى حرارة وإصرار ، مفضية بما تكن لعمها من محبة وإعزاز ، فلم يسعه إلا أن يضمها إلى صدره ضمة اشتياق ، واستغرقا على هذا النحو فى عناق جياش .

وما إن دار على عقبيه ينأى عن السرير ، حتى استنكرت منه الطفلة فى مهدها ذلك الفراق العجول .

وتشعثت حركاتها ، وكثر شغبها ، فغشى الفراش فوضى وكأن ما تناثر من أغطيته ، وتبعثر من أرديته غوارب موج علت بها ثائرة الريح ، فانكب العم على السرير يصلح من أمره ويسوى حواشيه.

لم يغب عنه وهو يسجى الطفلة من جديد أن يدمث لها الوسادة كى يستوى رأسها فى وضع مريح ، فتنام ساكنة البال قريرة العين ، ثم بسط الغطاء يدثرها به خشية أن يصيبها من برد الليل أذى .

وسرعان ما عدل قامته ، وأدار ظهره ، ملتمساً فى خطاه البهو الكبير .

بيد أن الطفلة لم تهدأ لها حركة وتمادت فى غيها تصخب .

وفطن العم إلى ما تبتغيه الطفلة : إنها لم تقصد من وراء عملها هذا إلا المماطلة والتسويف ليمتد اللقاء فلا تشق إلى النوم من طريق.

وحين استدار العم على عقبيه يواجه الطفلة ، تصنع الغضب ، فأكسب ملامح وجهه سيماء الجد والحزم ، وكذلك شحذ حنجرته ، فى سعلة عالية ليخرج صوته الهزيل ، جهورى الجرس ، يوقع فى روعها التخويف والترهيب ، وهو يصرفها عن غيها المألوف كلما أوت إلى الفراش تهدأ وتستريح .

ولما نطق يؤنبها ، انكسرت حدة صوته ، وملكت عقيرته رنة عطف وخلجة حنان ، وما لبثت أساريره المربدة ، أن انفرجت يكسوها إشراق .

ليس ذلك بغريب عليه : إن إرادته الصلبة حيال الطفلة شمعة واهنة تحترق وتذوب .

ومثل للطفلة يبتسم .

بيد أنه ألفاها عاقدة الجبين ، زاوية ما بين حاجبيها ، ترميه بنظرة يتجلى فيها أسف وعتاب ، فجلس على حافة السرير

يداعب وجنتها بقبلة خاطفة ، وقد احتوى يدها الصغيرة بين كفيه ، وانبعث يخاطبها فى وداعة يقول :

كفاك عناداً يا طفلتى . . . مكثت معك أكثر مما ينبغى . . . لا أود أن أكون سبباً فيما ينشب بينك وبين أملك من اوم وتعنيف . . . دعى الليلة تنقضى فى سلام . . . هيا . . . عليك بالنوم . . . أعدك إن شاء الله أن يكون بيننا فى غد اقاء.

وهم واقفاً يخلى حافة السرير .

فتعلقت به الطفلة تغمغم فى صوت محزون :

لا تتركنى . . . ابق معى . . . أنا خائفة .

وراع العم ما سمع ، وطفق يمسح على رأسها بيده ، ويلاعب خصلات شعرها الخصيب ، متبسطاً فى الحديث يسائلها :

وما سر خوفك يا طفلتى ؟

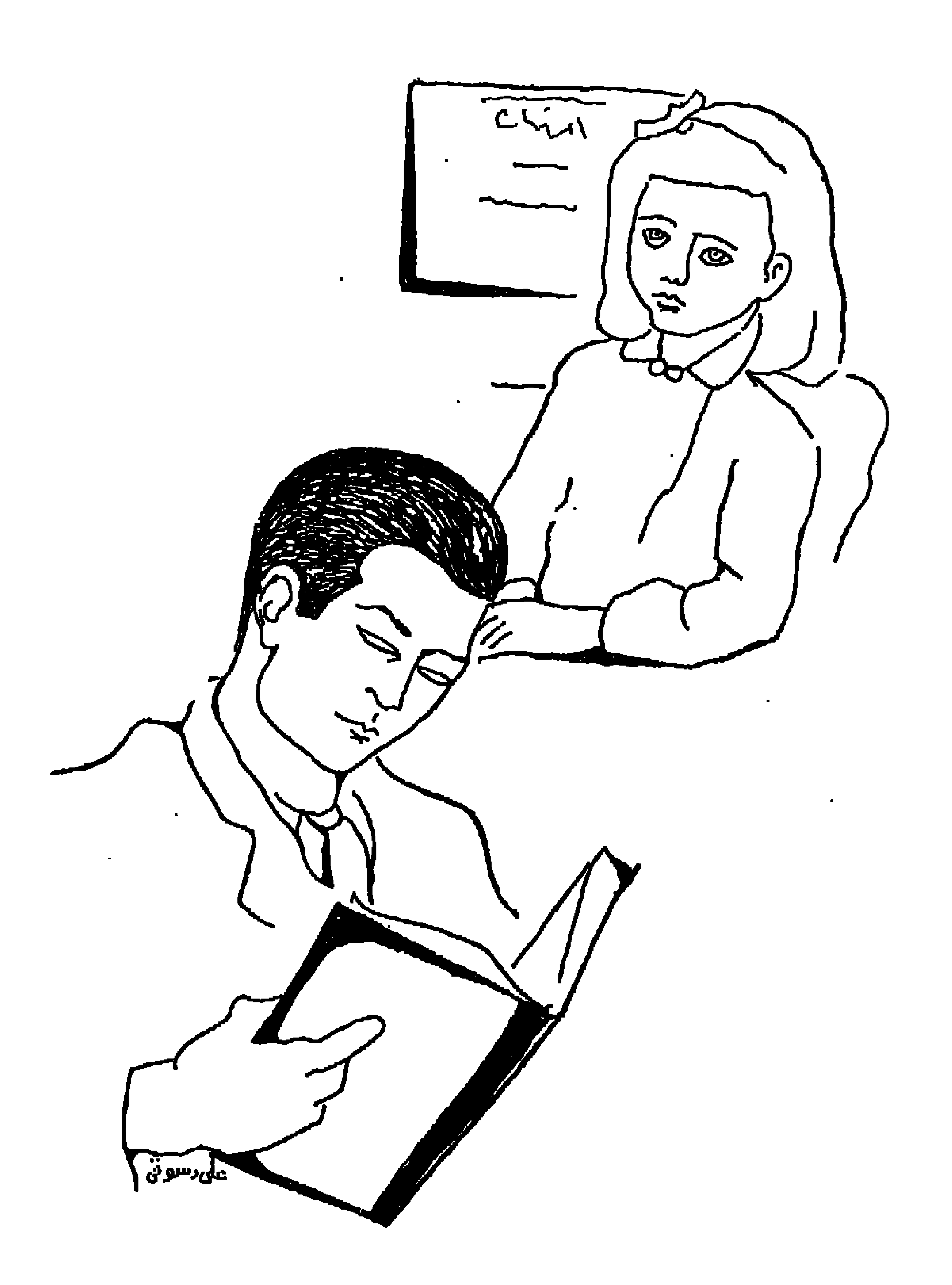
وأطبقت الطفلة على يده وقد استبانت على محياها ظلال امتقاع ، وهى تقول :

فى غد يكون الامتحان .

ــ أوَهذا سر اضطرابك يا بنية ؟

وأومأت الطفلة برأسها تؤكد قوله مسبلة الجفنين .

وافتر ثغره عن ابتسامة وهو يبادرها بقوله :


علي دسوقي

خيال ما تتوهمين . . . يوم الامتحان لا يخيف . . . ليس فيه ما يعكر الصفو . . . ستجدين فيه ما تألفينه فى كل يوم : أنس من أترابك وحفاوة من مدرساتك ومدرسيك .

يا للحجة الداحضة ، ويا للمنطق السقيم !

زعم باطل ذلك الذى ساقه من قول .

لا ريب أن الامتحان ظله ثقيل وموقفه بغيض .

لطالما انتابه منه فزع مروع وهلع مستطير .

أوَناسٍ هو ؟

ألم يسهد الليل بطوله خاوى البطن ، محموم الأوصال ، وفى خياله منظر المدرس منتفخاً على مقعده وكأنه ضرغام جسور يحدجه بالنظر الشزر ، وما أسئلته إلا أنيابه المسنونة تنهشه نهشاً ، فيقف منه ، واذلاه ، يابس الفم ، متخشب اللسان ، لا يحسن إلا الفأفأة ، وهو يتخبط فى أجوبة طائشة .

فلماذا يألف نفسه الساعة مسوقاً إلى تضليل للطفلة وتغرير ؟

وانتبه العم على صوت الطفلة تناديه ، فالتفت إليها يقول :

هل من جديد ؟

فرققت الطفلة من صوتها وهى تعابث حاشية الغطاء :

لى عندك رجاء .

ـ مطلبك على العين والرأس .

ـ صلِّ الليلة من أجلى . . . ادع الله أن يلهمنى الصواب فيما أكتب وأجيب . . . إنى بك متفائلة وبدعائك مستبشرة .

ـ لك ما تبغين يا صغيرتى .

وانحنى على الطفلة يقبل جبينها قبلة خاطفة ، وراح فى خطاه يتوخى باب الحجرة، ولكن صوت الطفلة ناداه يستوقفه قبل أن يدير مقبض الباب وينصرف ، وسمعها تقول :

سهوت عن أن ترقينى على مألوف عادتك قبل أن أنام .

وكر العم راجعاً إليها ، ومر بيده على رأسها هامساً برقيته .

واستشعرت الطفلة راحة تسرى فى أوصالها ، واستسلمت للنوم.

وزايل العم الحجرة يحاذر فى خطوه ، ومن ثم ترك المنزل ايلتقى بالطريق ، فصافح وجهه نسيم رطب عطر .

وتحيرتِ قدماه : إلى أين تسعيان .

وتطلع إلى ساعته فألفى الليل قد توغل ولا أمل اه أن يذهب إلى منتداه المفضل يستمرئ فى صحبة الرفاق وقت مؤانسة وصفاء .

ومكث غير قليل لا يعى ماذا يصنع .

ما باله يستشعر أن فى دخيلة نفسه ما يشبه حجراً ثقيلا يعوق انطلاقه فى تلك الأمسية التى رق هواؤها ورطبت أنفاسها .

وتريث في وقفته يبسط أوصاله و يضمها مستعيداً نشاطه المألوف.

و بعد لأى ضرب يديه في جيبي سرباله وأطلق العنان لقدميه لا يعرف لخطواته قصداً ولا وجهة .

وعرجت به خطاه فى طوايا الطريق على ضفة النيل ، فظفر به يسبح فى لجة من فضة ، نامياً على صفحته القمر مكتمل التألق والبهاء، فعقد ذراعيه على صدره وقد تاه فى أجواز الخيال.

ما لتلك الطفلة تخوض فى شأن صلاحه وتتواه تهرف فى الحديث بما تجهل ؟

من يكون هو فى تقديرها لتطالبه بالدعاء ؟

ألمجرد عبادة وصلاة يصبح قدساً من طهارة وقبساً من نقاء ؟

الصلاة ما هى إلا مظهر ، تكليف واجب الأداء ، لا يتكيف بها حكم على إنسان .

إن الطفلة لا تعرف من حقيقة أمره إلا مجرد طلاء ، شأنها شأن المتطلع إلى قبر تحليه النقوش والرموز لا يدري ما تضمه غيابته.

وما قلبه إلا غيابة ذلك الجدث .

كل ما تعرفه الطفلة أن عمها رجل سمح الوجه ، ندى الكف ، أنيس الجليس ، ملء نفسه تقى وصلاح . . .

ولكنها تجهل أن هذا العم لم يسلم من الإثم ، ولم يكن

بالطاهر العفيف ؛ لقد وقع فى حبالة هوى غير مشروع .

ها هو ذا يعكف فى صومعة ضلاله، ومحراب غوايته، يحرق عقله ويذيب إرادته بخوراً يعطر ذلك الهوى الذميم .

لم يكن بأقل وثنية من هؤلاء الكهنة المتعبدين الذين يستهلكون الساعات الطوال يرددون الصلوات والتعاويذ أمام دمى خرساء .

أثمة اختلاف بين الإحساس بالرغبة وإنفاذ المبتغى المراد ؟

كلاهما فى عقيدته إثم يصرخ الضمير منه ويلتاع .

هذه المرأة التى شغفته حباً ذات زوج وولد ، وإنه إن التقى بها ، وما أكثر لقاءهما ، سعى إليها بلواحظه يلتهم منها قدميها الناصعتين المتوردتين ، ثم تسبح عيناه إلى الساق البديعة الملساء تموج فى جوربها الهفهاف ناعمة بضة ، ويعلو بأنظاره إلى شفتيها المكتنزتين كأنهما حبتان من كرز ناضجتان ، وما يزال فى تطوافه بالمفاتن مسحور العين ، مشبوب الوجدان .

أليست صلاته وسط هذه الزوبعة الآثمة ضرباً من الزيف والضلال ؟

أيحق للطفلة أن تطالبه بتوسل ودعاء ، وهو كنقد تتداوله الأيدى دون أن تفطن إلى زيفه ؟

ما أكثر ما استمتع بحبه المحرم فى أحلام يقظته ورؤى نومه.

فما إن يحتويه فراشه ويغمض عينيه حتى يجسم له الوهم صاحبته تشق الظلمة عليه وتبادره فى غلالة كاشفة تماوج على خصرها اللدن فى إيقاع متزن يساير خطوها الرزين وهى تدانيه كأنها خطرات النسيم .

وهنا ينسدل الستار على وهمه الكاذب ، فيتنبه من أحلامه ناقماً على نفسه ، منكراً ما يطوح به خياله فيه .

لا . . . إنه لن يصلى . . . هى كلمة قالها ولا مرد لها .

وصدف عن النهر مهزوم القوى ، تترنح خطاه .

وبلغ شقته .

وما إن احتوته حتى صدمته الظلمة الجاثمة فى أرجائها ، وتعثرت قدماه بما اعترضه من أثاث ، فازداد ضيقاً على ضيقه ، وانبعثت من حلقه كلمات التأفف والاستنكار ، وعجل إلى زر الكهربا يطلق الإشراق من معقله فخرج النور يهزم جحافل الليل.

وقصد ، على الفور ، حجرة نومه يستبدل بملابسه منامته الرحراحة ، ويستكمل زينة المساء ، ولكنه عزف عنها وما زال مكتمل البزة قاصداً مكتبته يتودد إلى مجلداته وأسفاره ، فلم يرقه عبوس الكتاب وهو قائم فى صوانه خلف البلور الشفاف ، ففزع إلى حجرة الجلوس ، وعرك مفاتيح المذياع ينطقه ، بيد أنه ما أبطأ أن أسكنه ، ومضى إلى البهو الفسيح ، وهكذا

أخذ يحوم فى الحجرات مثل النحلة الدؤوب ، تضيق به رحبات شقته ، دون أن يركن لمقعد أو يخلد إلى ركن ، يصيب عنده طمأنينة البال .

يا لله . . . الطفلة ما فتئت تطارده حيث حل ، وتطالبه فى ضراعة بالنجدة والغوث .

كيف تتمتم شفتاه بدعوة ، وكيف به يجهر بصلاة .

أليس هو الآثم الأكبر : ما رعى خلقاً ولا فضيلة ، وما كان ممن تحتفى بأدعيتهم أبواب السماء .

وامتدت يده إلى عنقه تفك عنها رباط الرقبة ، ثم عمد إلى زر بنيقته يفتحه .

وخطا إلى النافذة يملأ رئتيه بالهواء بعد أن تخفف من سترته ، وشمر عن ساعديه . .

وشعر بشىء من الراحة .

بيد أن حلقه يابس يطلب جرعة ماء .

وذهب إلى المستحم ، وقابلته المرآة ، فمثل يتوسم وجهه وكأنه ينظر إلى شىء بغيض يمجه ويكرهه .

أنضح وجهه بما طوى عليه صدره من غواية وضلال ، فانطبع على المرآة يشوه إهابها المصقول ؟

كفاه تحديقاً إلى شبحه المسئوم .

فليعمد إلى الماء يبل به ريقه ويمسح وجهه ليعيد إلى شحوبه نضرة الحياة !

وانبسطت كفه إلى صنبور الماء تدير مقبضه ، فانبثق الماء يفور فى الحوض ويمور ، بيد أن كفه بقيت ساكنة لا تمتد إليه .

متى كان الماء يمحو ما اصطبغ به وجه إنسان من خبث ولؤم وضلال ؟

أفى مقدور رذاذ أن يغسل المأثم ، ويطهر ضمائر العصاة ؟

يالله ، لكأن خرير الماء عبارات الطفلة تنهال عليه واضحة النبرة ، جلية الجرس ، تحثه أن يجهز نفسه بالوضوء ليشرع فى الصلاة والدعاء .

لا وضوء . . . ولا صلاة . . .

عليه أن يرد الماء عن مجراه ، وينصرف عن المستحم ، مسارعاً إلى فراشه ينشد فيه الأمن والسلام .

واندفعت يده إلى صنبور الماء تريد حبسه ، وما هى إلا أن أحس بالماء يغمر فمه ، ووجهه وقدميه ، فما نشب أن رام المستحم إلى حجرته ووقف يتحرى القبلة ويستقبل وجه الله .

وخطرت له فى صلاته توسلات الطفلة أن يدعو لها ، فإذا هو ينخرط فى دعاء وتضرع وابتهال ، سائلاً لنفسه هو دون سواه العفو والغفران .

الخاتمة

كان جالساً خلف مكتبه ، فى الحجرة التى اختارها لنفسه من ذلك المنزل الرشيق ، الذى استأجره على أرباض المدينة ، حيث تنكمش الحركة ، ويسودها السكون ، فجعل منه مثابة الإلهام ، ومنزل الوحى .

لم يألفه صباح اليوم ، متفتح النفس ، على مألوف عادته ، بل هو جامد الملامح ، مربد الوجه ، يستغرق فى تفكير ، وقد انكب على أوراقه ، يشغل بها نفسه فى تدقيق وتمحيص، ملتمساً لقصته الروعة والسمو .

ما لها تتعاصى على قلمه وتتأبى على فهمه ، منذ حين ؟

أيرجع إجداب فكره ، وجفاف قريحته ، لما أفرط فيه من سهر فى مغنى « الفن الرفيع » بصحبة « أمينة مكتبه » الحسناء ؟

إن عقله اليوم مشتت عليل ، لا يجود له إلا بتافه من الخواطر ، وفج من الأفكار .

عليه أن يدبر نهاية لقصته ، ولا بد أن تكون مثيرة عامرة

بالحيوية والانتفاض ، وها هو ذا قد وقف قلمه حائراً ، يضن بما يطمع فيه من حبكة موفقة ، وختام مثير .

ودلفت يده إلى لفافة تبغ ، أشعلها ثم اشتبك مع أوراقه فى عناد ، يعتصر ذهنه ، ويجمع شوارد خاطره ، وكأنه يسوق قلمه الشرود سوقاً إلى ما يرغب فيه ويريد .

وتمثل فى مخيلته طيف « أمينة مكتبه » الحسناء وملك فكره أمرها .

أتراها تستهويه لأنها تأنس به ، وتحدب عليه بما تحمل بين جوانبها من قلب كبير ؟

أم لأنها تدنى منه منال الوحى ، وتعينه فى ساعة الإلهام ؟

أفوق مستطاعه أن يزاول عمله بمفرده ، فى صحراء خواطره ، ومتاهة أفكاره ؟

وحانت منه التفاتة إلى ساعة احتلت من مكتبه ركناً قبعت فيه ، وكأنها الراصد اليقظ ، يحصى عليه وقت العمل ومدة الإجهاد . .

فحدجها عاقد الجبين يتعرف !

وهز كتفيه ، يبرطم ، حين لاحظ أن النهار أوشك أن ينتصف .

وانكب على أوراقه ، يعاود المطالعة والتفكير ، بيد أنه لم يخط فى عالم الرأى خطوة يتصيد بها ما ند من خواطره ، وشرد من أحاسيسه

سحقاً لذلك اليوم المنحوس .

لا بد أن تكون « أمينة مكتبه » قد حضرت ، وأنها — لا شك — فى انتظار غمزة الجرس ، لتقبل عليه كشأنها معه .

أيدعوها الآن ، ولم يخط قلمه منذ الصبيحة الباكرة جملة صافية ، أو فكرة عالية ؟

وتطاول له رأس الجرس ، من بين كومات الأضابير ، يختنق بها مكتبه ، يدعوه إلى غمزه ، فتطلع إليه ، ويده تقبل عليه وترتد ، وقد اغتصر جبهته ، فاستبانت عليها ثنايا التجاعيد ، تكشف عن تحير وإحجام .

وجذب من لفافته أنفاساً طوياة ، ثم هز منكبيه ، ينصرف بأنظاره عن رأس الجرس .

لا . . . لن يدعوها . . . ليعالجن مشكلته بنفسه ، دون معونة أو إرشاد .

لن يناديها حتى تختمر فى رأسه الفكرة و يسلس له عنان التعبير ، لكى لا يكون لها من مهمة ، إلا أن تتسمع من فمه

ما يتدفق به من قول ، فتدونه على الورق كالآلة الصماء .

واستأنف يحمل عينيه على القراءة. ويلقى بفكره فى أودية الأخيلة والتصورات مستبطناً سر الموقف القصصى الذى التوى عليه .

أما « أمينة المكتب » الحسناء ، فقد كانت فى حجرتها المجاورة ، خالية إلى نفسها ، مستغرقة فى تفكير ، فمنذ وفدت على المنزل مع الصباح الباكر ، وهى تتحين لقاءه ، لعلها تظفر بخبيئة نفسه ، وما ينحنى عليه صدره من أنباء حالية ، وأخبار تتلألأ بوميض آمال عراض .

لقد أنبأها — وهما مجتمعان فى مسهرهما المفضل ، ليلة أمس — أنه ملىء الوفاض بما تسعد به وتسر ، فلما حثته على الإبانة والإفصاح ، أمهلها إلى غد ، وهو يلاطف يدها ، ويعابثها ، فى تبسط وظرف .

فلما خلت بنفسها ، فى مرقدها ، نبا بها المضجع ، وقضت ليلتها مسهدة ، لا يغمض لها جفن ، تتقاطر عليها مشاهد من حياتها ، منذ نجم بينهما تعارف وتزامل ووصال .

أما كيف تم بينهما التلاقى ، فقد اتصلت عراه عقب إعلان فى الصحف قرأته ، فتقدمت تعرض خدماتها عليه .

لقد راعها منه وجه حسن ، وقامة معتدلة ، ودماثة خلق ، حتى إن قلبها لم يتمالك أن يخفق خفقاناً مضطرباً سرى فى أوصالها ، فكأن كلا منها قلب على حدة يخفق ويرف .

كم كان حفياً بها حتى إنه تمادى فى إكرام وفادتها ، فأفرد لها مكاناً بجانبه ، وقدم إليها لفافة تبغ ، فاعتذرت عنها فى أدب ، فطلب لها قدحاً من شراب الليمون ، وما عتم أن لاطفها فى الحديث ، يرفع كلفة اللقاء الجديد ، وانثنى يسائلها نتفاً من أخبارها .

وألفت نفسها منساقة ، تجيب فى غير خجل ولا تهيب ، تروى له قصة حياتها كاملة ، فوقف منها على أنها تعيش فى كنف أم مريضة ، تتطلب منها التعهد والرعاية ، وقد توفى والدها ، مخلفاً لها رصيداً ضئيلاً لا يسد نفقات العيش وأعباء الحياة ، فالتحقت — لكى تجابه مسئولياتها — بأحد معاهد الآلات الكاتبة تتدرب على أعمال الكتابة والاختزال ، وتلك هى مقبلة عليه ، لتظفر منه بما يعينها على التكسب من رزق حلال .

وشيعها إلى الباب . وقبل أن يغلقه طاف بها فى أرجاء المنزل ، فاستوقفها أمام حجرة من حجراته وهو يدفع ببابها يقول :

هنا مكتبك . . . الآلة الكاتبة فى انتظارك ، لكى تنجزى بها ما تراكم من عمل .

كادت تنفجر يومئذ ، من فرط حبورها ، عندما رامت منزله ظافرة منه بكلمة الرضا عنها ، والترحيب بعملها .

وما إن استقبلت أمها المريضة ، حتى انهالت عليها فى حماس ، تثنى عليه وتمتدحه ، فلم تلق من والدتها إلا التحذير والتخويف والنصح .

أليس الرجال كلهم من طينة واحدة ، ومنبت مشترك ! ! نشأوا غلاظ القلوب ، وتدربوا على أذية النساء ؟ !

ولكنها فى زحمة نشوتها ، لم تعر تلك الثرثرة الواهية كبير اهتمام ، وأوت إلى فراشها ، ضجيعة حلم بهيج ، أذلك هو الحب الذى يصيب من أول نظرة ؟

أمستغرب عليها ، بعد هذه الليلة البهيجة ، أن تتحين لقاءه ، فى هذا الصباح متوقعة أن يتضرج جبينها بحمرة الخجل ، ويسودها — كلما تطلع إليها — ارتباك ؟

ونأمت فى الحجرة حركة ، فانتبهت تتسمع ، عله يكون الجرس قد انبعث يدعوها إليه ، ولكنها لم تجد إلا صمتاً كأنما يتلصص عليها ، ويرصد منها خفايا الهواجس والأفكار .

وسمت إلى ساعة الحائط تتبين الوقت ، فإذا النهار وشيك الانتصاف ، وها هى ذى حبيسة حجرتها ، مشبوبة الوجدان ،

مقسمة الفكر ، تتحين صلصلة آلة صماء !

وداخلها قلق .

ماله يبطئ عليها ؟

ألم يفطن أنها أصبحت ظله الذى يأبى أن يفارقه ؟

أغائب عنه أنها صارت خلال تلك الشهور من تلاق وتلازم ، يؤنسها منه فى تلك الحجرة سيل من مشاعر فياضة رقاق ما تتمثل لها على الورق أناساً متقدة الحس حتى تألف معهم الحياة وتتوثق بينها وبينهم عرى مودة وإيناس .

أغائب عنه أنها قد صارت خلقه الذى صاغه وسواه فهى وحى من صنع خياله وفكرة من فيض إلهامه ؟

إن تلك المثابة الفنية هى المخبار الذى أذاب فى أحماضه شخصيتها الأولى ثم أطلقها منه إنساناً جديداً يعتمل فى قلبه حب ويصطرع فى رأسه آمال .

الأجدر به أن يلقاها على الفور ، ويروى سمعها بما أخفاه عنها من أخبار مشرقة .

وفيما هى مستغرقة فى غمرة تلك الأفكار ، صلصل الجرس طويلا ، فما عتم وجهها أن اكتسى بالبهجة والإشراق ، وسارعت إلى مرآتها تلقى عليها نظرة فاحصة .

لقد حانت الساعة الحاسمة ، وآن له أن يكشف النقاب عن خبيئة نفسه .

سوف يطلق ، ساعة يلقاها ، ما فى جعبته بخوراً تفوح أطيابه ذكية ، فتنتشى بشذاه العبق ، وتأنس به .

وغيبت المرآة فى حقيبة يدها ، بعد أن أصلحت ما تهوش من شعرها وأمرّت على شفتيها القلم المحمر ، تعيد إليهما وجاهة الرونق .

وسرعان ما دفعت الباب الموصل إلى مكتبه ، فى رفق ، فأسفر عن وجهها البهى ، وقامتها المبسوطة ، ومنكبيها العريضين ، لفهما إليه مطرف من حرير ، يحليه وشى متآلف جميل ، وقد انطوى ساعداها على رزمة من ورق ، وتطاول بين إصبعين من يدها قلم .

وتجلت عند الباب مشرقة الملامح ، متوهجة الجبين ، بذلك اللقاء المرتجى .

وتشبثت بالمقبض تنظر إليه ، ملتمعة عيناها ، منبسطة أساريرها ، وقد تراحبت على شفتيها ابتسامة متألقة ، كأنها زهرة تختلج نشوى على عودها الرطب ، مشرقة الأكمام ، يطالعها وجه الربيع الندى .

لكنه لم يرفع رأسه ، ولم يلتفت إليها . إنما ظل على حاله ،

يقلب الصفحات أمامه ، ويرقبها ، كأن لم يدخل عليه أحد ، مغضن الجبين ، تتوضح على محياه علامات التزمت والضيق . .

فلم تجد الفتاة بداً من أن تغلق الباب فى عنف ، علّ ذلك المتحجر على مكتبه يفيء إلى نفسه ، ويتنبه إليها ، واسترسلت تحدجه فى غضب ، غير أنه تمادى فى انهماكه ، منصرفاً عما عداه ، مما زادها من تغيظ وحنق .

وكادت كلمات الاستياء تفلت منها تسائله فى تحد، عن دواعى ذلك اللقاء الجاف ،لكنها ملكت نفسها ، وآثرت الصمت.

وما لبثت أن تخلت عن الباب ، تدلف فى الحجرة فى خطا رعناء ، حملتها إلى المقعد عن كثب منه ، فتهالكت عليه غير معنية بما تهوش منها ، تلتهمها نار الحيرة ، وتمضها لوعة الوساوس والظنون ، وكأن خبر الأمس المضيء ، ذبالة شمعة حاسرة النور ، مطموسة الوهج ، فى شعاع الشمس المصبحة .

لم ينظر إليها ، ثم صاح محنقاً يقول :

لم أعد أحبك . . . أما فهمت بعد . . . ؟ !

واضطربت الفتاة ، وتسارعت دقات قلبها ، ثم تضرج وجهها بحمرة قانية ، وسادها ارتباك وسهوم .

وطأطأت رأسها ، تتشاغل بأثناء ثوبها ، تخفى ذهولها من هول المفاجأة .

أما هو ، فصدر عن المكتب عاقداً يديه خلف ظهره ، واستقبل النافذة ، ينظر منها وينفث دخان لفافته جزافاً ، فيتلوى على زجاجها ويغشاه . . .

ويظل على هذا النحو مستغرقاً فى تأمل وصمت .

غريب منه ذلك الصنيع .

إنها لم تألفه فظًّا غليظ القلب على هذا النحو ، حتى إن الابتسامة الوضيئة التى كان يلقاها بها لم يرف لها وميض ، ونظرته المعبرة لم تتوضح ، وكلمة الترحيب الطيبة ليس لها فى الحجرة صدى ورنين .

أهذا هو النبأ المشرق الذى أزمع أن يفك عنه طلاسم الأسرار ويبثها إياه ؟ !

ليته كتمه عنها ولم يلوح لها به .

إنه انقلب أفعى تسعى بين يديها ، لا يحسن إلا اللدغ بما اختزنه من قواتل السموم !

ما ينبغى لها بعد الآن أن يعتمل فى قلبها حب وتبرق فى رأسها آمال .

وأفاقت الفتاة على صوته الراعد يقول :

لا تنكرى سنة الحياة . . . النار تخبو . . . والثوب يبلى . . . والحب لم يسلم من يد العفاء . . . قلبى لم يعد يتسع لك . . . إنى أكرهك . . . لم أعد أحبك وأهواك . . . وجب عليك أن تقبلى الأشياء على علاتها بصدر رحب ، ونفس راضية .

وما كادت الكلمات تتوضح لسمعها ، وتتبلور فى عقلها ، حتى ضاقت بها الحجرة ، وكأن جدرانها سواعد غليظة العضلات أطبقت على عنقها تعتصره اعتصاراً ، وأن ما يحيط بها من فضاء هو جب سحيق المهوى ، حاسر الضوء ، مختنق الهواء .

فامتقع وجهها ، وتسارعت أنفاسها ، وحدقت فى الأوراق ، على ركبتيها ، فتمثلت لها غوارب موج ، تمور أعماقها بسوالف الأحداث ، ومواضى الذكريات .

لم يسعها إلا أن تتذكر تلك الليلة التى قضياها على أرباض المدينة الساجية ، فى نزهة خلوية ، على ضوء القمر .

ألم يفتح لها قلبه ، وينفض بين يديها جعبته كطفل التقى بالصدر الحنون ، فاسترسل ينفث فيه رغباته وأمانيه ؟ !

لقد اندفع يشق غلائل الضباب ، الذى يكتنف المستقبل المبهم ، صاروخاً منطلقاً إلى أعلى يرتاد مجاهل السماء ومطوى الغيوب .

كان وهماً جميلا ذلك الذى صوره ورعاه . .

إنه هيأ لها فيه مكاناً شغلته . . . بل كانت هى الشمس التى تحف بها أفلاك وأقمار .

سوف تصبح رفيقة أسفاره ، وحايفة أفكاره ، ترصد له ، وتدون ما يختلج فى نفسه من تجارب واستجابات للحياة والأحياء .

سوف يطيران إلى بلاد الفن الخالدة ، يستقبلان ربوع أسبانيا المشرقة ، وإيطاليا الضاحكة ، وسويسرا المهندمة ، وألمانيا المجدة ، وفرنسا اللاهية اللعوب .

سوف يتخطى بها ومعها أدبه حيزه الضيق لينطلق إنسانيًّا متطوراً ، يكتب له فى سماء الفن العالمى السمو والخلود .

لماذا حدثها ذلك الحديث المستفيض وهو قريب عهد بها ؟!

لماذا كان يملأ قلبها بالأمانى الرطاب ، والأخيلة العذابّ ؟!

أعزب عنه أن قلبها بالحياة حفى كالأرض البكر ، سرعان ما تنضر وتخضر ، إذا أتيح لها زرع وَرِىٌّ ؟

وسمعته يتنهد تنهدة جياشة ، فاشرأبت بجسدها كله إليه ، وإذا به ما زال إلى النافذة رانياً ، يوليها منكبيه عاكفاً على صمته ، غارقاً فى تأملاته .

فما لبثت أن تهاوت بقوامها على المقعد متخاذلة ، وألقت

برأسها على مسنده، وقد أمسكت بالقلم تقرض أطرافه فى تغيظ.

كم ودت أن تكاشفه ساعة أسدل على منكبيها ذلك المطرف الموشى ، بما يعتمل فى نفسها من مشاعر جياشة ، لكنها سكتت ، لا تملك إلا أن ترنو إليه ، وترنو مشبوبة العاطفة ، مضطربة الوجدان .

أما هو فلم يتفوه بكلمة ، غير أنه ضغط يدها ، وضغط حتى آلمها ، ولكنه ألم أشعرها بالحب وغمرها بالسعد .

كم كانت تواقة أن تهمس له من أعماق قلبها : ألم تدرك بعد أن بجانبك مخلوقاً يفهمك ويقدرك ويذوب عطفاً لك ومودة ؟

ما أروعه من يوم ، عندما خالط بين اسمها واسم النجم اللامع فى روايته، فأخذ يسكب فى سمعها كلمات الهوى والغرام، لا يحده فى انطلاقه حاجز ، ولا يوقف تياره مانع . كتلك الأقمار الصاعدة من الأرض لا تملك إلا أن تدور مشدودة إليها بما للجاذبية من سلطان .

ليته لم يعتذر لها عندما تبين الخطأ .

ليته تركها واهمة تحسب الخطأ حقيقة صادقة .

لماذا لم يستقبلها بوجهه ساعة ضمتها الحجرة إليه ؟

لماذا بقى نافراً يوليها ظهره ؟

أجبن أن يواجهها خوفاً من أن يلين قلبه ويرق ؟

أعلى هذا النحو يختتم حلمها القصير معه ؟

إنها لا تحتمل . . . أعصابها مرهقة إلى حد التخاذل والإعياء .

يا لها من غمائم قاتمة تلك التى تغشى سماءها الصافية !

ويخرج هو عن صمته ويقول راعش الصوت :

علينا أن ننفصل فى هدوء . . . ليكن فصالنا بمنأى عن زوابع النشيج والبكاء ، وشوائب التبكيت والعتاب . . . الحياة معك فقدت رونقها الجميل وطعمها الحلو . . . عليك بالرحيل . . . مبلغ من المال يعوضك ما لحق بك من ضرر . . . لم أعد أحبك . . . وإنى على يقين من فطنتك وذكائك . . . لا تجعلى المهمة عسيرة علىّ . . .

واهتزت الفتاة كأنها استهدفتها لكمة عنيفة ، وغلى الدم فى رأسها ، ثم ما لبثت أن انفجرت واقفة تصيح :

كفى . . . كفى . . . لقد جاوزت الحد . . . إنك جامد كالصخر ، متغير كالهواء ، متقلب كالبحر . . . إنك قاس وخشن لا تعيش إلا من نفسك ولنفسك . منذ الآن لن أقف فى

سبيلك . . . سأختفى من حياتك . . . سأكون خيالاً فى ضباب فنك ، وفكرة فى سماء إلهامك إن بقى لك إلهام وفن . . . الوداع . . . الوداع إلى الأبد . . . إنى أمقتك . . . أمقتك . . . أكرهك من أعماق قلبى .

وهرولت الفتاة خارجة يستبد بها نشيج ، وتخنقها عبرات ، وقد قذفت المكتب بالقلم ، ودفعت بالورق فتناثر على أديم الحجرة كأنه فتات قلبها الكسير .

واندفع هو يقول فى حماس :

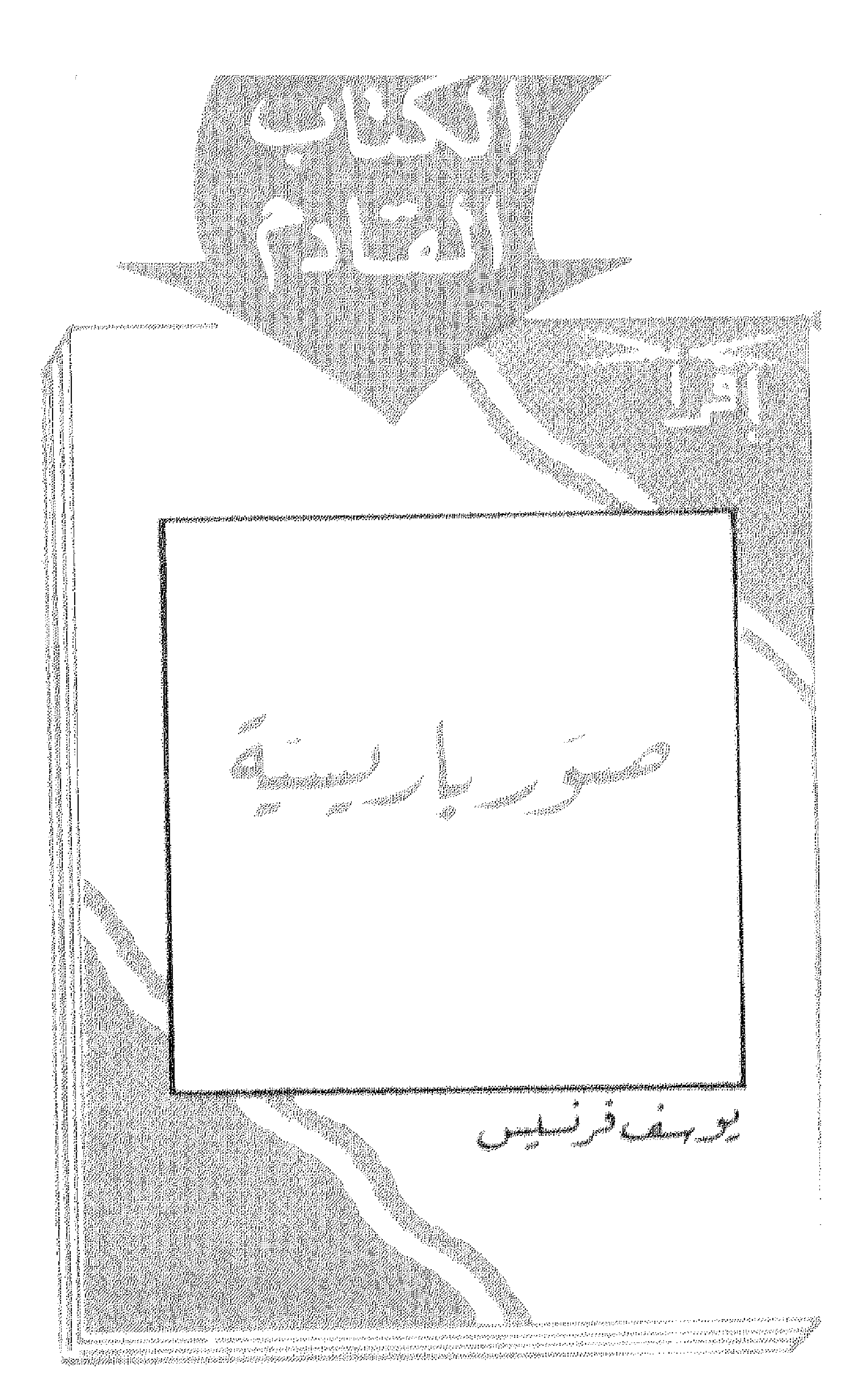
رائع ذلك . . . موقف مثير . . . دونيه . . . لا تسقطى منه حرفاً . . . رائع . . . مرحى . . . مرحى . . . خاتمة فيها ولا ريب الروعة والسمو .

واستدار على عقبيه متهلل الأسارير ، فما كان أكبر دهشته عندما التقى بمقعدها خالياً بنفسه ، وقد انسدل عليه مطرفها ، وكأنه يحدجه فى أسف وذهول .

وران على « رب الحجرة » سهوم ، ثم اندفع نحو الباب ، وانطلق فى مختلف الأرجاء مردداً اسمها فى صوت جهورى ملهوف !

فهرس

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٩


الكتاب القادم
اقرأ
صور باريسية
يوسف قرنيس

